الحرب الإسبانية

احمد فؤاد الأهوانى

سبتمبر ١٩٣٨

مطبعة دار النشر ـ بمصر

الحرب الإسبانية

احمد فؤاد الأهوانى

مطبعة دار النشر — بمصر

كلمة

فى شهر يولية من عام ١٩٣٥ بارحت مصر إلى الاندلس ، فى صحبة طلبة معهد الآثار الاسلامية ، وقد تفضل بمرافقتنا فى ذلك الحين الاستاذ عبد الحميد العبادى ، استاذ التاريخ الاسلامى بالجامعة المصرية.

ولم أكن فى ذلك الوقت طالباً فى معهد الآثار ؛ ولكنى كنت أنشد البحث عن مخطوطات إسلامية فى مكتبة الاسكوريال إحدى ضواحى مدريد ، أو فى مكتبة مدريد الأهلية . وليس من الغريب أن تحتوى مكتبات الاندلس على تراث العرب الاسلامى فقد كانت حضارتهم زاهرة زاهية ، بل كانت تلك الحضارة فى القرون الوسطى هى المنهل العذب الذى ارتشف منه الغرب وبنوا على أساس ما أخذوه منها حضارتهم الحديثة. كان يطوف فى ذهنى السفر إلى تلك البلاد ، ثم وصل إلى سمعى نبأ رحلة الجامعة ، فانتهزت هذه الفرصة السانحة السعيدة ، واشتركت مع القاصدين .

وأقلعت بنا الباخرة من ثغر بورسعيد تمخر عباب البحر الابيض

المتوسط متجهة شطر جبل طارق ، مفتاح أسبانيا من الجنوب والشوق يحدو إخوانى إلى معرفة الآثار العربية الاسلامية فى الأندلس وفى نفسى أمل العثور على ما أنشد من مخطوطات فلسفية إسلامية وهى تختص إذا شئت التحديد بابن رشد فيلسوف الأندلس العظيم .

ونزلنا فى جبل طارق ، ومنها إلى إشبيلية ، ثم إلى قرطبة فغرناطة وانتهينا إلى مدريد . فتسنى لنا بذلك أن نطوف بأهم مدن ذلك القطر ، وأن نذرعه من الجنوب إلى الشمال .

وللغريب نظرة فاحصة ، وروح باحثة منقبة : إذا أضفت إليهما معرفة تاريخ البلاد ، فان السائح يخرج بثروة من المشاهدات لها قيمتها ولها أثرها .

وبارحت الاندلس ، وأنا أحمل فى نفسى أجمل الذكريات ، وأعمق الآثار ، لجمال طبيعتها ، وحسن مناظرها ، وطيب هوائها وحسن معاشرة أهلها . وقد نزلت فى دول أجنبية كثيرة كفرنسا وألمانيا وأيطاليا ، ومكثت فيها حيناً ، فلم يطب لى المقام كما طاب فى الاندلس ، تلك البلاد التى تشعر فيها أنها حبيبة إلى نفسك قريبة إلى حسك جميلة فى نظرك .

فلما نشبت الحرب الاهلية تحمل معها الخراب والدمار ، وهدم

الدور والقصور والآثار ، وقتل النساء والرجال والأطفال ، وقعت هذه الحرب فى نفسى موقعاً سيئاً ؛ لأن الأهل الذين تفتك بهم قذائف الطائرات ، وقنابل المدافع ، إنما هم أهلى وإخوانى أكلت طعامهم ، وشربت ماءهم ، وتحدثت وإياهم ، وقضيت معهم أسعد الأوقات ؛ فكل كارثة تحل بهم تحز فى نفسى وتؤلمنى أبلغ الألم .

بل الاندلس ليست غريبة عن العرب والاسلام ؛ ففى فجر الحضارة الاسلامية دخلها طارق بن زياد غازياً ، وازدهرت فى قرطبة و غرناطة حضارات كان لها أثرها فى الشرق والغرب ، وقامت خلافة أموية فى الاندلس عظيمة الشأن تنافس الخلافة العباسية فى بغداد ،واذا كانت الحضارة تقاس بمقياس العلم والأدب فان الاندلس العربية تعد فى طليعة الحضارات ، وعنها تسربت العلوم المختلفة إلى جامعات أوربا . وطرد العرب فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى وعمل الأسبانيون جهدهم أن يزيلوا كل أثر من آثارهم . ففرضوا عليهم الديانة المسيحية واللغة الاسبانية،ولكن الروح العربية لاتزال ترفرف فى أنحاء البلاد الاسبانية ، هذه الروح التى اختلطت بالدماء ، ونزلت منزلة الطباع ، وأمامنا اللغة الاسبانية نفسها نصفها عربى والنصف الآخر تحول أعجمياً

بحكم الاضطرار، وأسماء الناس أغلبها إذا حورتها قليلا تجد أنها تعود عربية . وأكثر عاداتهم كالكرم والمحافظة على العفة والنظافة هي عادات عربية . واذا فرضنا أنك استطعت تغيير كل هذا ، فانك لن تستطيع أن تبدل الوجوه غير الوجوه فالمرأة الاسبانية بشعرها الاسود الفاحم وعيونها التي فى طرفها حور ، هي امرأة عربية قبل كل شيء .

وإذا قلنا إن الصلة التي كانت تصل تاريخنا بتاريخهم ، وديننا بدينهم ، ولغتنا بلغتهم قد انقطعت منذ بضعة قرون ، فقد أصبحت هذه الصلة فى القرن العشرين مما لايستطيع أحد أن يضرب عنه صفحاً . فاسبانيا مفتاح البحر الأبيض المتوسط من الغرب إذا اعتبرت أن قنال السويس مفتاحه من الشرق ، وبينها وبين مصر علاقات اقتصادية لا نستطيع أن نغفلها ، ولنا قنصلية ومفوضية فى مدريد ، ولأسبانيا مفوضية وقنصلية فى مصر ، ويستقبل الأزهر كل عام كثيراً من المراكشيين الخاضعين لحكومة أسبانيا يتلقون علوم الفقه والدين ، وتعمل أسبانيا على نشر الحضارة الاسلامية القديمة بتدريس اللغة العربية والقيام بطبع كثير من المخطوطات العربية . والحقيقة أن كثيراً من المستشرقين يعملون على إحياء اللغة العربية وعلومها فى جامعات أسبانيا ، وأذكر أنى حين زرت مدريد عام ١٩٣٥ قابلت هناك عالماً

يسمى الأب موراتـا ، كان يعمل فى نفس المخطوط الذى أشتغل فيه وهو كتاب النفس لابن رشد ، ومن الطريف أننا حين اجتمعنا كان لا يعرف من اللغات إلا الأسبانية وأنا اجهلها فكانت وسيلة التخاطب بيننا هى اللغة العربية ، فانظر إلى أى حد بلغ شأن اللغة العربية بيننا وبينهم . ثم أن الحكومة الاسبانية طلبت إلى الحكومة المصرية فى عام ١٩٣٤ أن تنتدب أحد المصريين ليقوم بتدريس اللغة العربية فى جامعة غرناطة ، ولا أعلم ماذا تم فى أمر هذا الطلب، وهل سافر ذلك المصرى المنتدب بالفعل أم لا .

وقد أصبحت الحرب على الأبواب ، لا ينقصها إلا التهيؤ الكامل والاستعداد التام عند بعض الدول وعلى الأخص انجلترا ، التى تنتظر حتى يستتم لها تنفيذ برنامج التسليح وتصبح على أهبة الحرب . والحديث الدائر الآن على الأفواه أن الحرب الأهلية الأسبانية هى الشرارة التى سينفجر منها بركان الحروب العالمية . وفى كل يوم نقرأ فى الصحف أنباء انتصار جيوش الجنرال فرانكو ، أو ثبات الحكومة أو انهزامها إلى غير ذلك ، ولكن أحداً لم يتعرض للالمام بالحرب كاملة ، وعلى الأخص لبيان أسبابها ، بينما الأدب الاوربى يزخر بعشرات الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع . لهذا كتبت هذا

الكتاب المتواضع ، وهو الاول من نوعه فى مصر ، ليلقى الضوء على الحروب المستعرة فى الجانب الآخر من البحر الابيض المتوسط . ولعل هذا الكتاب يكون فاتحة لغيرى من المؤلفين الذين قد يختلفون معى فيجلون جوانب لم أطرقها ، ووجهات من النظر لم أفطن إليها .

مصارعة الثيران

الشعب الوحيد في العالم أجمع ، الشعب الذى كان يقيم لمصارعة الثيران ملاعب تزدحم ازدحام الموالد والأعياد حتى لا تجد موضعاً لقدم ، الشعب الذى يتلهى بالتفرّج على الملاعب وهو فى خطر الموت مع أخطر الثيران وأشدها عوداً ، ولا يجد فى هذا الضرب من الوحشية أىّ حرج ، هو الشعب الأسبانى

تربى الثيران الخاصة بالمصارعة تربية خاصة ، فيقدم لها أنسب الطعام وأدسمه ، وتتدرب على القتال حتى تتوحش وتضرى .

وتعتبر هذه المصارعة من أنواع الرياضة العالية . وتحتاج الى كثير من خفة الحركة ورباطة الجأش وسرعة الخاطر . واذا كنا نعتبر هذه المصارعة نوعاً من الوحشية ، فهى فى نظرهم ضرباً من ضروب الرياضة . ومن العسير إبداء حكم صحيح هل هذه اللعبة وحشية أم إنسانية ؟ فالمسائل الأنسانية اعتبارية محضة . ومن الناس من يعتبر ذبح الدواجن والاغنام لأكل لحومها توحشاً فيعيشون على النباتات ، وهم فريق كبير -

أما نحن على العموم ، فلأننا لم نألف تعـذيب الحيوان فأننا ننظر إلى هذه المصارعة كأنها غمزة من غمزات الوحشية .

حضرت أحد هذه الحفلات فى ٢٧ يولية سنة ١٩٣٥ . وقد تأثرت أول الأمر ولم أستطع إخفاء إنفعالى حين أرى الثور يطعن وهو يتألم ولـكننى لم ألبث أن نظرت الى المسألة من ناحية أخرى . لماذا يجد هذا الجمع الحاشد كثيراً من اللذة والاستحسان ؟ لا بد فى الأمر شىء خفى لا نراه نحن ، ولذلك تجردت من عواطفى لحظـة ونظرت الى المصارعة كفن من الفنون ورياضة من الرياضات .

ووصف المصارعة بسيط ، فهى تنقسم إلى ثلاثة أقسـام : القسم الأول دخول الثور هائجاً ثائراً ، فيتلقاه ثلاثة من المصارعين يحملون فى أيديهم قماشاً أحمر داكناً ؛ ذلك لأن اللون الأحمر يجذب نظر الثور ويهيجه . فيهجم عليهم ، وكلما أمعن وراء أحدهم اجتذبه الآخر اليه . وكلما سدد الثور هجمته على الرجل ناحية القماش الأحمر ، سحب الرجل القماش ونفسـه بخفة شـديدة بحيث يضرب الثور قرونه فى الهواء . وتستمر هذه الحركات مدة خمس دقائق تعزف الموسيقى بعـدها لحناً . ثم يأتى الدور الثـانى ، وهنا يتقدم مصارعان ، يطعنان الثـور بحراب يبلغ طول الحربة نصف متر ، السلاح فيها يشبه السنارة ، والباقى قطعة

من الخشب كسيت بورق ملوّن ليميزها المتفرجون . ويقف المصارع أمام الثور فيهجم هذا عليه ، فأذا ما أوشك أن يضربه بقرنيه ، رشق المصارع الحربتين بخفة فى ظهره وانسحب عنه ، فيثور الثور من جديد. وترشق فيه ست حراب بهذا الشكل . وتستغرق هذه الألعاب خمس دقائق تعزف الموسيقى بعدها ثم يبدأ الدور الثالث وهو القضاء الأخير على الثور . فيتقدم المصارع وسط الميدان ويرمى بقبعته إلى الأرض بعد أن يعرضها على المتفرجين ، ويعتبر هذا تحدياً منه للثور ، فاذا قضى عليه رجع بنفسه وأخذ قبعته عن الارض ، فاذا ناله الثور ذهب وبقيت القبعة . فالقبعة هى الحد الفاصل بين الموت والحياة .

والطعن فى هذه المرة يكون بالسيف . والضربة الاولى تكون فى الظهر فينفذ السيف إلى آخره . ويجرى الثور من الألم ويظل يحرك عضلاته حتى يخرج السيف ! فاذا بدأ الثور أن يخور : يهيجونه باللون الاحمر ، ثم يقف المصارع امامه ، ويطعنه طعنة خاصة فى وسط الرأس فينفذ السيف الى المخ ويخر الثور صريعاً . وهنا يصفق القوم وتعزف الموسيقى ، ثم تدخل خيول ثلاثة تجر الثور . ومنظر هذه الخيول

يذكر الانسان بايام الرومان حينما كانت عجلة الحرب تدخل روما وهى تجر وراءها السبايا على الأرض .

هذه هى الرياضة المحبوبة عند الأسبانيين ، فيها سفك الدماء ، والكر والفر ، والهزيمة والانتصار ، والتفنن فى تعذيب النفس ولوأن هذه النفس هى لحيوان،وفيها استهتار بالحياة وما بالك بشخص ينازل وحشاً وجها لوجه لو ناله لقضى عليه.وكثيراً ما سقط فى ميدان هذه المصارعة شبان فى زهرة الشباب ، وهم لذلك يجعلون إلى جانب كل ملعب كنيسة ومقبرة اما المقبرة فتثوى المصارعين أما الكنيسة فللصلاة عليهم .

ولعلك تسأل ما شأن الحرب الأسبانية بمصارعة الثيران ؟

انها صورة من الحياة الاجتماعية التى تسود الناس فى تلك الجهات وهى تدلك على مقدار استهتار القوم بالحياة ؛ وعلى ولوعهم بالمباراة والتنافس ، وعلى رخص الحياة عندهم حتى ليضحوا بأنفسهم ضحية لقرون الثيران ، التى يفتنون فى تعذيبها .

ولعل هذه الحرب التى أكلت الأخضر واليابس ، هى دعاء هذه الثيران المتوجعة الشاكية من ظلم الانسان .

١٨ يولية سنة ١٩٣٦

هذا هو التاريخ الذى يبدءون به الحرب الأهلية فى أسبانيا ، كما اصطلحوا على يوم ١٤ يوليه بداية للثورة الفرنسية .

والحقيقة أنه من الصعب تحديد ساعة معينة لبداية ثورة أو حرب فلهما مقدمات طويلة . والشعب فى حالة الثورة ، أو الدولة فى مواجهة الحرب ، كلاهما يكون كالمرجل الذى ينحبس فيه الماء ولا يزال يغلى حتى ينفجر

وسنعود الى تفصيل هذه الأسباب العميقة للحرب الأهلية الأسبانية بعد قليل ولكننا الآن سنذكر الشرارة الأولى التى انبعثت منها هذه الحرب

ففى ١٣ يولية قتل العمال فى مدريد أحد زعماء أحزاب اليمين، المعادين للجمهورية ، وهو المسمى كالفوسوتيلو . وأثار هذا المقتل روح السخط بين المتذمرين على الحكومة ، وابتدأت الفجوة بين الفريقين أن تتسع .

وزاد هذه الفجوة اتساعاً بعض حوادث كان من الممكن التجاوز عنها لولا روح التذمر والتنمر والتوتر التى كانت سائدة . من ذلك أن أحد الضباط فى حفلة من حفلات العرض العسكرى اعتقد أنه سمع ملاحظات نابية من الجيش ،فلم يطق ذلك ، واعتدى على اثنين من العمال بالضرب ولما دار التحقيق مع الضابط صدرت الاوامر بملازمة الثكنات وحينئذ تضامن الضباط جميعا مع زميلهم ، ولازموا الثكنات ، التى أصبحت كخليات النحل ، وكثر الهمس ، وأصبحت مركز المؤامرات ، وركن التذمر .

وفى ١٧ يوليه ، فى صباح ذلك اليوم ، ذاعت أنباء ثورة جيش مراكش على الحكومة ، ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى اندلعت نار الثورة فى أسبانيا نفسها فى اليوم التالى .

وكانت الثورة مدبرة ، والحكومة عنها نائمة .

وتقدم الجيش ، ومعه الآت القتال والقوة ، فدخل المدن ورحب أهلها به ، لأن النفوس كانت فى حال ثورة ترتقب هذا الانقلاب

وأذاعت أسلاك الراديو من مدريد بلاغا للناس أن يطمئنوا ويعتصموا بالهدوء ، حتى تخمد الحكومة هذه الثورة ، ولكن هل يفيد الكلام البليغ أمام قصف المدافع

واستيقظ الناس فى المدن وقد أدهشتهم رنات الموسيقى الحربية ووقع أقـدام الجنـد . ولم يستطع القوم أن يفسروا فى وسط هذه الدهشة السر فى هذه الاحداث المفاجئة .

ولم تلبث الأخبار أن ذاعت على الأفواه تعلن أن ثورة حربية مسلحة اجتاحت أسبانيا كلها ، وستحل الحكومة الوطنية فى مدريد محل الحـكومة الجمهورية ، حكومة وطنية على رأسهـا الجنرال «سـانجورجو» .

ولم تكن تسمع بين الحين والآخر إلا هتـافات «ليحيا الجيش» .

وانتشرت الأعلام فى الشوارع ، وسارت فيالق من السوارى والجند المسلحين بين تهليل الشعب وصياحه

ودقت نواقيس الكنائس تعلن انتصار الثورة الجديدة

واصبح الحـكم لحـكومة الثوار العسـكرية فى البلاد التى استولوا عليها فى الجنوب .

وكانت الوقيعة بين رجال الجيش و الفـاشيست ورجال الثـورة ، وبين العمال والفلاحين كبيرة إلى حد لايمكن صلاحه .

وكما بدأت الثورةبالاعتداء على كالفو ساتيلو الفاشيستى فى مدريد ،

كذلك أخذ الثوار فى الانتقام من العمال فى المناطق التى سيطروا عليها بما سموه عملية « التطهير الوطنى »

وخرج أحد العمال من منزله فى « بور جوس » صباح يوم ، ولقى فى الشارع فرقة من الجيش استوقفته وصاحت به

« أيها الاشتراكى الوغد ، قل لتحيا اسبانيا ، ليحيا الجيش »

فأجاب العامل لتحيا الجمهورية

وتجاوبت أصداء الفضاء دوى رصاصات نفـــذت إلى قلب العامل فوقع جثة هامدة .

حضرت النيابة للتحقيق ، وفتشت الجثة فلم يعثر فيها على شىء ، ولم يتقدم أحد لتحقيق شخصية القتيل ، أو لم يجرؤ أحد على ذلك . وأمر القاضى بتصوير الجثة بضعة صور فوتوغرافيـة عرضت فى القسم لعـل أحداً يتقدم بما يثبت معرفته بالقتيل . وشرع رجال البوليس فى البحث عن أسباب الجريمة .

وفى اليوم التالى أمر الحاكم العسكرى برفع هذه الصور المعروضة ثم أفهم القاضى أنه يجدر به فى المستقبل ألا يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه الحوادث .

وبدأ من ذلك الوقت التطهير الاجتماعى .

وكانوا يأخذون الناس بالشبهات ، والعقاب الوحيد هو الرمى بالرصاص ، وكثر فى كل يوم العثور على الجثث المجهولة ، يعرفها أصحابها ولكنهم لايجرأون على إبلاغ الجهات المختصة خوف القصاص غير العادل.

ولم ينس الجلادون وهم ينفذون أحكام الثورة ، أن ينفذوا أحكام الشهوة . ففى صباح ٢٤ نوفمبر عثر البوليس على جثتين ، الأولى لعامل فى شركة كبيرة ، وهو أحد أعضاء الحزب الاشتراكى ، والثانية لابنته .ولم يكن هناك سبيل لانكار معرفة أصحاب الجثتين ، فكلاهما من أشهر الناس فى بورجوس ، على الأخص الفتاة ، حيث كانت أجمل فتاة فى المدينة . وقد فسق بها الثوار قبل أن يمثلوا بها وقبل أن ينفذوا حكم الاعدام . وغضب حاكم المدينة لهذا الحادث ، ولكنه فى سبيل انتصار الثورة أمر باسدال الستار عليه

حكومة الثوار فى بورجوس

اشتعلت نيران الثورة فى كثير من المدن ، واشتد العداء بين الجيش والحكومة الجمهورية فى مدريد ، وانتشرت أعمال التطهير التى ذكرنا طرفا منها فى الفصل السابق ، وهو التطهير المقصود منه القضاء على جميع الذين ينتمون إلى الحكومة الشرعية ، ويظهرون الميل إلى المبادىء الاشتراكية ، ويعطفون على حركة العمال والفلاحين .

ثم تساءل الناس من هم القائمون بأمر هذه الحركة ، ومن هم المحركون لها ؟

كانت الآمال التى تحتضنها صدور رجال الثورة ، على الأخص لاعتمادهم على رجال الجيش ، أن يقلبوا الحكومة الجمهورية ، ويدخلوا مدريد دخول المنتصرين الظافرين ، وهكذا لا تمضى إلا أيام حتى تحل حكومة مكان حكومة ، وتذهب ريح الجمهورية وسلطة العمال والفلاحين ، وتعود الملكية ، أو يظل الحكم جمهوريا ، ولكن

الطبقة الاستقراطية ، وأصحاب الاراضى ورءوس الاموال ، ورجال الجيش ، يعود الى هؤلاء جميعاً النفود الذى كانوا يتمتعون به قرونا طويلة من الزمان ، فينعمون بالسلطان وابهة الحكم .

ولكن الرياح لم تجر كما تشتهى السفن ، وتبددت أوهام الثوار أمام دفاع مدريد وقشتالة ، ووقوف أهل كثير من المقاطعات فى وجه الثوار ، لان فى دعوتهم عودة الرجعية والاستبداد .

وأصبح الموقف يتلخص فى كلمتين ، حكومة شرعيه فى مدريد ، وثورة على هذه الحكومة صدت الحكومة نيرانها الى حد ما

واسرع الثوار الى تنظيم صفوفهم ، ورسم الخطط الجديدة التى تلائم الموقف الجديد .

ونعود فنقول من هم قادة هذه الحركة ، لان قوادها هم الرؤوس المحركة لها .

كان على رأس هذه الثورة الجنرال سانجوريو ولكنه فى الوقت الذى ركب الطائرة من برشلونه ليذهب على عجل ليشرف على أمور الثورة احترقت الطائرة وتوفى .

وحل محله الجنرال مولا فى الشمال ، والجنرال جيبوادى لانوفى

الجنوب .

أما الجنرال فرانكو ، فلم يكن أحد يسمع بذكره ، بل لم يكن احد يعرف أين مقره ؛ ومع ذلك كانت الاحاديث كلها تدور حول اسمه ، مشيدة بذكره . وكان الناس ينتظرون وصوله بفارغ الصبر بين حين وآخر على رأس الجند المراكشيين ؛ ولكنه لم يصل .

واجتمع القواد والضباط ؛ وأجمعوا على ضرورة وضع خطة الاستقرار التى تضمن العمل المنتج الموحد واتفقت كلمتهم على أن تكون لورجوس مقر حكومة الثوار . والغرض من ذلك أن تكتسب الثورة مظهراً شرعيا فى نظر الدول ؛ اذ لهم حكومة فى عاصمة، تحفظ الامن وتقوم بما تقوم به الحكومات . ودخل الجنرال مولا يحف به الضباط والجند فى موكب كبير فى مدينة بورجوس دخول الفاتحين ، واستقبله الاهالى بالهتاف والتهليل « ليحيا الجنرال مولا »

وألقى الجنرال خطاباً حماسياً على الجمهور جاء فيه « بعد أيام معدودة ، ستخمد حركة هؤلاء الخوارج فى مدريد وبرشلونه وغيرها وسأهتف بعد ايام بل بعد ساعات من شرفة وزارة الداخلية فى مدريد بتحيا أسبانيا »

فى هذه الـكلمات القليلة تتضح أطماع مولا ؛ ولم تـكن هـذه الاطماع محدودة ، بل كانت تسمو الى الرياسة المطلقة . ومولا هو الذى اختار مدينة برجوس عاصمة لحـكومة الثوار ، ولم يجرؤ أحد على منازعته أو منازلته وفى يده القوة والنفوذ . واكبر منافسى مولا هما الجنرال فرانكو ، والجنرال جيبو دى لا نو .

ولـكن الحظ يلعب دوره فى حياة الافراد والشعوب : هذا الحظ الذى قضى على « سانجورجو » فى الطائرة ، فأحل مولا مكانه ، قضى كذلك على مولا هو وأركان حربه ومسـاعديه وهم فى طائرة ، وفى الوقت الذى كان يقوم فيه بحصار بلباو . وحينئذ خلا الجو لفرانكو .

ولا يزال الجنرال جيبو دى لانو على قيد الحياة . وهو من الرجال الخطرين ويعمل حساباً لكل شىء . حتى ان موت زملائه على النحو الذى ذكرنا جعله يتحفظ من ركوب الطائرات .

على أن رئيس الحركة الآن ، الذى يتردد اسمه فى كل مكان ، واليه تنسب الحركة وتوصف ، هو الجنرال فرانـكو . فمن هو ..؟

ليس فى صفات فرانكو الخلقية والنفسية والجسمية مـا يوحى اليك انك امام شخصية عظيمة ترغمـك عـلى الاذعان لها . إنه يفقد

الشخصية البارزة والصفات الضرورية اللازمة لمن يريد أن يلعب دور الدكتاتور .

قامته قصيرة وملامحه عادية فاذا كان فى حضرة شخصيات أخرى فانك لن تلقى اليه بالا : لولا أنهم يقدمونه عليهم بحكم منصبه الرسمى .

هذا النقص الطبيعى فى شخصيته من الناحية النفسية جعله يحاول أن يعوضه بوسائل أخرى من الدعاية والاعلان . وطبعت صورة الجنرال فرانكو فى ملابسه الرسمية ووزعت فى جميع الجهات التى فرضت عليها الثورة . ووقعت إحدى هذه الصور فى يد شخص من الموالين لحركة فرانكو فقال «هذا الرجل يأتى من أعمال الدعايه اكثر مما تفعل جاريتا جاربو» .

واليك أمثلة من هذه الدعاية . فقد ارغموا اصحاب الحوانيت أن يعلقوا فى شرفات محالهم صوره فرانكو . ومن طرق الاعلان أن دور السينما والتمثيل توقف عرض افلامها أو رواياتها فى ساعة معينة لتظهر صورة الجنرال فرانكو . وانظر الى الاثر السيء العكسى الذى

تفعله هذه الطريقة من الاعلان لان أشد انصار الجنرال حرارة وحبا يتألم لوقوف مشهد الرواية الذى يتبعه بشغف ليقطع عليه سلسلة أفكاره ومشاهداته صورة الجنرال فرانكو.

فقد رأيت أن فرانكو بمواهبه الطبيعية لا يبعث فى النفوس هيبة أو القلوب تأثيراً . وزادته دعايته الرخيصة مجاً . فاذا اضفنا الي ذلك قوة تأثير الجنرال «ولا فى بورجوس ومحبته فى الشعب ، وذيوع ذكر الجنرال جيبو فى اشبيليه وفى جهات أخرى اتضح لنا أن فرانكو فى اسبانيا لا يستند فى زعامته ورئاسته وقوته الى محبة الاسبانيين

اذن فأين ينال فرانكو التأييد . ومن اين له القوة والسلطان .

والجواب على ذلك يسير . إن نفوذ فرانكو الموهوم نجده فى المانيا وايطاليا وقوته التى يعتمد عليها تستند الى الحراب الايطالية والطيارات الالمانية . ثم الى سواعد الجنود المراكشيين من أهل الريف الذين غرهم اسمه الداوى الذى فملته الدعاية . فأقبلوا عليه يتلمسون فى واعوده المعسولة مخرجا لحالة بلادهم ولكن هؤلاء الجند البواسل لم يلبثوا حين وطئت اقدامهم أرض اسبانيا أن تحققوا ضآلة شأن ذلك الذى وضعوا فيه ثقتهم. وها هم الان يندمون على المساعدات التى قدموها لحكومة

الثوار ، ويكون الرجال البواسل الذين خروا صرعى الغايات فى أرض اسبانيا

وقد كان فرانكو يحلم أن يكون نابليونا جديدا يتربع عرش القلوب والاوطان ، ولكنه بعد ما منى بالهزيمة ، ووقف عند حده أصبح يعيش والندم يأكله والضمير يؤنبه . ولا يسير الآن إلا محوطا بجند من المراكشيين يحمون ذماره لانه لا يثق فى الاسبانيين .

عود الى الوراء

الحكومة الجمهورية

سيجد كتاب القصص والروايات فى حوادث اسبانيا الاخيرة مادة غزيرة للكتابة .

وعلى رأس هذه الشخصيات التى سيتناولها الكتاب بالاطراء والمديح ، هذه الشخصيه النبيلة السامية ، التى ضحت بكل شيء فى سبيل حقن الدماء ومصلحة الوطن ، ذلك هو الملك ألفونسو .

وأعلنت الجمهورية عام ١٩٣١ سفاحا ، لا لأن أغلبية الشعب تحب الجمهورية ، ولا لأن نظامها أصلح من نظام الملكية ، ولم يكن للملك فى تسيير شئون البلاد رأى قاطع وفيها برلمان ودستور .

ولكن مشيرى الملك أساءوا الشورى . إنه الكونت رومانس ساعد الملك الايمن الذى أشار بعقد انتخابات عامة ، بل بانتخابات بلدية

حيث سلطان العمال وأحزاب الشمال تملك النفوذ الأكبر ؛ ثم لجأ الجمهوريون إلى أساليب العنف والدعاية والتأثير ، فسارت جموعهم وأعلامهم فى الشوارع ، وأعلنت فى برشلونه الجمهوريه ، وأصبحت الحالة فى مدريد لا تطاق . والى جانب هذا النشاط من خاصة الجمهوريين ؛ نجد جبن رجال الحكومة ، وخيانة البعض الآخر وانقسام الجيش على نفسه إزاء كل هذا الاضطراب ضحى الملك الفونسو بعرشه فى سبيل الاحتفاظ بسلامة الوطن .

وهكذا تم أكبر انقلاب حديث فى التاريخ دون أن تراق نقطة من الدماء .

***

ولا يخلو هذا الانقلاب من معانى .

فقد كانت اسبانيا فى حاجة إلى إصلاح ، يخرجها من ظلام القرون الماضية الى حضارة القرن العشرين .

كانت الحياة فى اسبانيا أقرب الى العصر الاقطاعى منها الى أى شىء آخر

الفلاح الاسبانى يعيش فى حالة تدل على البؤس الشديد . فى قرية بالقرب فى اشبيلية قابل أحدهم فلاحاً قال له « لقد ذبحت اليوم قطتى وأكلتها . وهذه هى المرة الاولى التى أذوق فيها اللحم منذ ستة أشهر »

ولم يكن غذاء الفلاح سوى فنجان من القهوة يتناولها من غير سكر ثم الخبز الاسود وبعض البقول الناشفة كالفول والعدس . مساكنهم أقرب الى الكهوف . ملابسهم أسمال : فهم الى المعيشة الحيوانية المنحطة أقرب منها الى المعيشة الانسانية .

وحين أخذت الجمهورية الحكم كان عليها أن تغير هذه الحال . وكيف السبيل الى ذلك وثلاثة أرباع البلاد تعيش على الزراعة ثم أن واحداً فى المائة من السكان يملكون نصف الاراضى . بينما أربعون فى المائة لا يملكون شيئا .

لقد كان الفرق كبيرا بين طبقة الملاك وطبقة الفلاحين . اولئك يعيشون فى نعيم مقيم . وهؤلاء فى بؤس شديد .

وانتظر القوم أن تحل الجمهورية المشكلة الزراعية فعليها يتوقف تقدم اسبانيا .

***

انقلاب عام ١٩٣١ ، الذى ذهب بالنظام الملكى وأعلن الجمهورية دليل على حاجة البلاد إلى التغيير . وقد رأيت أن روح الانقلاب لم تكن موجهة الى الملكية فى ذاتها . وفى العالم دول ملكية وعلى رأسها انجلترا حالتها من أحسن الاحوال . وقد رأيت أيضا أن حالة الفلاحين ، وهم الاغلبية من السكان كانت من السوء والفقر والعرى بحيث أحسو احساساً عميقا بضرورة تحسين معيشتهم الاجتماعية على أى وجه . وليس سوء حال الفلاحين الا مظهر من مظاهر الفساد . فهناك نواح اخرى من التعفن الاجتماعى أعمق جذوراً وأبعد أثراً

فقد كانت اسبانيا الى القرن الماضى من دول الطبقة الاولى فى العالم : لها مستعمرات فى أمريكا الجنوبية والوسطى تدر عليها الذهب مجازاً وحقيقية ، وكلمتها مسموعة فى أوربا ، وعلى كثير من القوة الحربية .

ثم دار الزمن دورته ؛ وفقدت هذه المستعمرات ، أخذت بعضها الولايات المتحدة ؛ واستقل البعض الآخر ؛ وانهزمت اسبانيا هزيمة تعتبر فضيحة كبرى اذا ذكرت الهزائم ؛ ويكفيك أن تعرف أن سفنها الحربية التى نازلت بها الولايات المتحدة كانت من الخشب فى وقت

كانت السفن جميعا من الحديد والفولاذ

فهذه الهزيمة دليل على وقوف اسبانيا ، وتقدم الدول

فاذا اتجهنا بنظرنا الى حالة البلاد الداخلية نجد أنها كانت فى مثل ذلك الوقوف والركود ؛ بينما الدولة غنية بمواردها الاقتصادية ، بأرض فسيحة ومناجم عديدة ، وشواطىء ممتدة ، لم يستغل أحد كل هذا الاستغلال الواجب مما ساءت معه أحوال الشعب فأصبحوا يعيشون معيشة أقرب الى الحيوان منها الى الانسان

من المسؤل عن كل ذلك ؟ ليس الشعب مسؤلا ، لانه بعيد محكوم بل هو الذى يطلب الاصلاح ؛ أما المسؤل فهم هؤلاء الحكام من الطراز العتيق الذين لا يصلحون لشىء الا فى بذر المال ، واثارة الدسائس ، واحاطة انفسهم بالمظاهر الكاذبة ، لا لا نهم أجدر الناس بالحكم ، بل لا نهم ولدوا وهم يحملون طابع الارستقراطية ومراكز الحكم بالميراث

المسئول هم الملاك أصحاب الاراضى بل المقاطعات ، لايفكرون لحظة فى الفلاحين الذين يشتغلون عندهم ، الا كما يفكر صاحب الكلب فى كلبه إن شاء اطعمه وان شاء حرمه إنهم لا يعيشون الا فى مدريد أو باريس أو برلين

أولندن ، ينفقون المال فى شتى الملاهى ، على الغانيات والحسان وعلى موائد الميسر . على كل شخص ما عدا أولئك الذين يشقون طول العام فى الارض

هذه الطبقة هى أحد عناصر الرجعية التى اشتركت مع فرانكو فى الثورة على الجمهورية

***

كان من السهل أن يقنع الفلاحون بحالتهم فقد استمروا على هذ الذل آلافاً من السنين . ولكن الامور تغيرت بالنسبة للعمال . فبعد ان قامت الصناعات واجتمع من العمال ألوف فى مكان واحد وبعد أن اتسعت المدن التى تضم عدداً كبيرا من الناس فى صعيد واحد ، اصبح من العسير اقناع هذه الجماعات . من السهل أن تقنع فردا أو تحكم بضعة من الافراد . من السهل أن تستعبدهم وتسترقهم ولكن من العسير جداً أن تملى ارادتك على الجماعات الكبيرة . فهى بحكم تكوينها تشيع فيها الافكار ، وتسرى المبادىء الجديدة بين أفرادها ، وتصبح الجماعة كتلة واحدة ترتبط بروابط العواطف المشتركة والافكار الواحدة

وقد نشأت الثورة على الأنظمة القديمة ، والمطالبة بالاصلاح ، بين جماعات العمال قبل أن تنشأ بين الفلاحين . ووصل العمال إلى تحسين حالهم إلى حد كبير .

ومن ألوان هذا الاصلاح ، رفع مستوى الاجور ووضع حد أدنى لها ، وتحديد ساعات العمل ، وبيان أيام الراحة الاسبوعية ، وطريقة فض الخلاف بين أصحاب العمل والعمال .

وقد تنبهت لمركز العمال حين كنت في مدريد عام ١٩٣٥ . قال صاحب البنسيون الذى كنت نازلاً فيه ، أتدرى كم تتناول هذه الخادمة من أجر ؟ قلت كلا. قال ستة جنيهات فى الشهر . ثم أضاف قائلا ليت المسألة مسألة هذا الأجر المرتفع ، ولكننى لا أستطيع أن أطرد هذه الخادمة لذنب تجنيه ، بل يعرض الأمر على مندوب مصلحة العمل ليفصل بيننا ثم إن مندوباً لنقابة العمال يمر كل أسبوع ومعه دفتر كبير وللعامل أو العاملة أن يبث له شكايته مما يتذمر منه .

* * *

لما حدث الانقلاب الجمهورى عام ١٩٣١ ، حل الذعر بكثير من أصحاب الاطيان وأصحاب ورؤس الاموال ، فتركوا البلاد ، وفروا بأموالهم إلى أوربا .

والمال هو الروح المحركة لكل شيء ، هو العصب من الحياة .

وفى الدولة كثيرون من أنصار الحكومة القديمة : وسيأتى ذكرهم بالتفصيل فيما بعد .

والفلاحون والعمال ، اعتقدوا أن الحكومة الجديدة ستصلح أحوالهم ، وتدر عليهم السمن والعسل .

هذه كلها أشواك دامية لمن يكن من السهل على الجمهوريه التغلب عليها . فليس فى استطاعة حكومة مهما أوتيت من قوة أن تنقل البلاد من الفوضى إلى النظام ، ومن الفقر الشامل إلى الثورة الموزعة بين يوم وليلة . وفضيلة الصبر قل أن تجدها لدى أغلب الناس . وكثرت مطالب العمال والفلاحين لدى الحكومة بسرعة تحقيق آمالهم ، ولم تستطع الحكومة أن تجيبهم إلى ذلك فى الحال .

وهكذا شاع التذمر فى أنحاء البلاد ، سواء من المعادين للجمهورية ، وهؤلاء بطبيعة عدائهم متذمرون ، أو من الموالين لها وذلك لبطء الحكومة فى تنفيذ الاصلاح المنشود .

ذهب صحافى فى عام ١٩٣٤ فى جنوب أسبانيا ، وسأل جمعاً من الفلاحين ماذا أفادتهم الجمهورية ، فأجاب أحدهم أنهم لم يستفيدوا شيئاً ، ثم صاحت امرأة « لتسقط الجمهورية »

والجمهورية مسكينة ، إذ لم تكن لها الاغلبية المطلقة التى تكفل لها حسن السير بالامور ، ونظرة إلى نسبة أعضاء مجلس النــواب من مختلف الاحزاب ، تبين أن أحزاب اليمين كانت على كثير من السلطان والنفوذ. أما الأصوات التى أعطيت للجبهة الشعبية، وهم الذين يوالون الحكومة فقد بلغت ١٥٦ر٢٠٦ر٤ بينما كان مجموع أصوات احزاب اليمين ٦٠١ر٧٨٣ر٣ . وفى المجلس بلغ الاعضاء المعضدون للجبهة الشعبية ٢٥٨ عضوا وأولئك الذين ينتمون الى اليمين ١٥٢ ، إلى جانب ٦٢ عضوا للوسط . فهذه النسبة تبين لنا أن أعداء الحكومة كانوا قوة لا يستهان بها الى جانب قوة الحكومة ، بحيث تعطل أعمالها وتشل حركتها

***

ولم يطق الفلاحون صبرا أكثر مما صبروا ، لذلك عزموا على أن يتخطوا الحكومة ، وينفذوا مشروعاتهم بالقوة

وتتلخص مطالبهم فى الحصول على الاراضى من كبار الملاك وعلى الاخص من أولئك الذين يهملون أرضهم دون ان ينتفعوا بها أو يدعون الفرصة للفلاحين الذين يتضورون جوعا أن يستفيدوا باستغلالها

وفى أوائل عام ١٩٣٦ اطمأن الفلاحون إلى نجاح الجبهة الشعبية

فى الانتخابات البرلمانية ، ووجه أهل مقاطعة « كاسيرس » إنذاراً إلى مكتب اصلاح الاراضى ، يطلبون بمقتضاه أنه فى خلال ثمانى وأربعين ساعة اذا لم توزع الارضى عليهم ، فسيضعون أيديهم عليهـــا بالقوة ، وأرسل رئيس المكتب خطاباً دورياً فى ٧ مارس ١٩٣٦ إلى الملاك يسألهم فيه أن يقبلوا التنازل عن بعض الاراضى للمحرومين منها .

ومضت أيام خمسة لم يتلق المكتب أى اجابة على الخطاب الدورى .

وعندئذ غزا الفلاحون الاراضى بدوابهم وعرباتهم، واستقروا فى الاراضى التى تعجبهم ، وشرعوا فى زراعتها .

وقد تدهش أن يكون للفلاحين دواب ولا يملكون أرضا . والحقيقة ان هذا المظهر الاجتماعى غريب عنا فى مصر . ففى أسبانيا طائفة كبيرة من الفلاحين ، يمتلكون البغال يضربون بها فى الارض ، ولكنهم خلو من الاراضى ويسمون فى لغتهم « يونـتروس » yunteros . هؤلاء اليونتروس أصابهم شظف العيش بعد اضطراب الأحـوال السياسية منذ تبوأت الجمهورية الحـكم وقد طردهم الملاك من أراضيهم نـكاية فيهم ، وبثاً للعراقيل فى سبيل النظام الجمهورى الذى يكرهونه .

وسرت العدوى من مقاطعة كاسيرس إلى المقاطعـــة التى تجاورها

وتسمى « بداجوز » وهى مقاطعة قريبة من الحدود البرتغالية . فى هذه المقاطعة سبعمائة ألف من السكان ، تسعون فى المائة منهم يعيشون على ما تنبت الأرض من زرع . وتوزيع الاراضى على السكان فى هذه المقاطعة يبين لنا التفاوت العظيم فى الملكية ، وفى توزيع الطبقات ، اذ بينما نجد كبار الملاك الذين يمتلكون مساحات شاسعة من الأرض يعيشون منها فى رغد وبذخ ، نجد إلى جانبهم آلافاً من «اليونترس» وهم أصحاب البغال فقط ، يعيشون فى بؤس شديد . واجتمع الفلاحون فى الساعة الخامسة من صباح يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٣٦ واخذوا فى مصادرة الاراضى وتوزيعها على أنفسهم . ولم يصادفوا فى هذا الاجراء أى صد ، ولم يرتكبوا أى عنف .

ولم تكن غاية الفلاحين سواء، بل كان جل قصدهم الاستقرار فى أرض يطمئنون فيها الى الحصول على العيش . ولذلك فانهم استولوا على الارض كمستأجرين فقط ليس لهم حق ملكيتها واعلنوا استعدادهم لدفع إيجار الارض لمن يثبت ملكيتها .

الاصلاح الزراعى ، واساسه توزيع الاراضى على الفلاحين ، كان يبشر بتحسين حالهم ، ورفع مستوى المعيشة . والحقيقة أن هذا

الاصلاح لم يكن كل شيء . فلا بد من شيء آخر يعمل فى سبيل طرد شبح الفقر والبؤس من أسبانيا ، هذه الدوله التى شاخت وهرمت ودبت عناصر الفساد فى كل نسيج من أنسجتها . ولم تكن اسبانيا فقيرة على التحقيق ولكنه سوء توزيع الثورة الذى أدى الى شعور ملايين من أهلها بالفقر . ففى عام ١٩٣٤ و١٩٣٥ كانت الآف من الناس تشكو الجوع ، بينما المحاصيل الزراعية تزيد على حاجة البلاد .

وقد شاهدت طرفا من هذا بنفسى ، وذلك فيما يفعلون بما يفيض من السمك عن البيع ، اذ يصطادون السمك كل يوم من الشواطىء ثم يحمل إلى المدن الداخلية كمدريد وغيرها ، وكل مايتبقى بعد الأصيل ، تعدمه البلديات خشية الفساد. ألم يكن الاجدر بيعه باجور رخيصة جداً للفقراء أو توزيعه عليهم مجاناً ؟

هذه الاصلاحات كلها كانت اصلاحات مرتجلة ، وأنصاف حلول للمشاكل التى تواجهها البلاد ، لم يرض عنها أحد .

فالبارونات والطبقة الأرستقراطية تضامنت فى الذود عن حقوقها الموروثة ، التى كانوا يعتقدون أنها من الحقوق الالهية ، فرفضوا أى تشريع يرغم على النزول عن الاراضى للفلاحين ، ورأوا فى الحركه التى

تمت فى مقاطعة كاسيرس وباداجوز بداية الطوفان الذى يجتاجهم ويغرق دولتهم ، فزادت أسباب حقدهم على الحكومة ؛ فتحفزوا للانقضاض عليها والعمل على إسقاطها . أما الذين فقدوا روح المقاومة والكفاح ، فقد فروا من الميدان ، وهربوا باموالهم الى خارج أسبانيا ؛ وهؤلاء عددهم ليس بالقليل .

وهكذا فقدت الطبقة الاستقراطية وملاك الاراضى كل أمـل فى عودة نفوذهم حين رأوا تصميم الشعب على استخلاص حقوقه بالقوة أو باللين . ولم يبق أمام هذه الفئة إلا سبيل واحد : هو العمل على قلب الحكومة . فاشتعلت الثورة فى ١٨ يولية ١٩٣٦

وضم هؤلاء صفوفهم الى صفوف المعادين للجمهورية وهم ، الجيش ورجال الدين واصحاب رؤوس الاموال والملكيون

وهؤلاء وأولئك هم القوى التى يعتمد عليها الجنرال فرانكو فى ثورته

الجيش

الجيش هو أقوى عناصر الثورة الأسبانية ، ولكنه ليس أهمها ولكننا أحببنا أن نتحدث عنه أولا لانه ابرز هذه العناصر . والحقيقة أنه من العسير بيان نسبة النواحى المختلفة من الثورة ومبلغها من الأهمية ، فهذه كلها مسائل اعتبارية لا تستطيع أن تزنها بميزان دقيق .

وحقيقة الأمر أن الثورة فى مظهرها وفى كثير من دعائمها عسكرى بحت فالذين قاموا بهذه الضربة السياسية الجريئة هم رجال الجيش ، وعلي رأسهم الجنرال فرانكو وغيره ؛ وأكثر من هذا فالحكم فى اسبانيا الوطنية حكم عسكرى بحت .

ولم يكن الجيش فى حركته التى قام بها مجرد آلة فى يد الثوار ووسيلة يدفعها ملاك الاراضى واصحاب الأموال ورجال الكنيسة وغيرهم من المتذمرين لقلب الحكومة وقضاء غاياتهم من العودة إلى الحكم والسلطان ، بل تحرك الجيش لأن له مآرب يريد أن يقضيها

فثورته ذاتية تحركها الشهوات والاطماع .

ومن المؤسف حقاً أن ينزل جيش أمة إلى معترك الخلافات الداخلية فيكون حربا على أهله وذويه ؛ بينما الجيش عدة الوطن للدفاع عنه من الاعداء المغيرين ، والدرع الذى يقيه فى ساعات الخطر

نقول هذا لأننا فى مصر وشيكون على عهد جديد ، سيكون للجيش شأن عظيم فى الدفاع عن سلامة البلاد، فليحفظ الذين يقرءون هذا الكتاب ماحدث لأسبانيا من جراء التدخل البغيض لرجال الجيش فى السياسة الداخلية مما جر عليهم الخراب ، ولنتخذ من هذه الأحداث عظة تقينا شر هذا الانزلاق فى مستقبل الأيام

* * *

وتكوين الجيش الاسبانى يعد من العجائب فى القرن العشرين .

ففى عام ١٩٣١، بعد الانقلاب الجمهورى مباشرة ، كان عدد الضباط واحداً وعشرين الفاً ، بينما عدد الجنود يبلغ مائة وثلاثين ألفاً، أى بنسبة ضابط لكل ستة جنود تقريبا ، ثم لكل مائة وخمسين جنديا جنرال. والى جانب ذلك كان الجيش يستغرق ثلاثين فى المائة من ميزانية الدوله ، وهذا المبلغ الضخم يتوزع بنسبة ثلاثة إلى عشرة لكل من الجند والضباط

فللضباط نصيب الاسد من تركة الدولة .

وللظروف الدولية اثر كبير فى وقف الرقى بالجيش . فاسبانيا كانت دولة محايدة فى الحرب الكبرى ، وليس لها مصلحة فى النزاع الدولى الدائر فى أوربا ؛ وليست مهددة بالغزو بواسطة قوة اجنبية ؛ ولذلك تواكل الجيش ؛ ولم ينظر القائمون بأمر الدولة فى تحسينه .

ومع ذلك فقد كان للجيش سلطان كبير فى عهد الملكية كما ظل له هذا السلطان فى عهد الجمهورية . وأكثر من هذا فقد كان للزى العسكرى مكانة التقديس ، دون أن يخضع رجاله للقضاء العام .

وجملة القول أن الجيش كان فاسداً ، ضعيفاً ، لا يشتغل رجاله إلا بالدسائس ؛ ولا يعضدون إلا الحكومة التى تحقق اطماعهم الخاصة وأطماع الطبقة التى نشأ منها الضباط ،وهى الطبقة الأستقراطية وملاك الأراضى واصحاب رءوس الاموال .

***

علة العلل فى فساد رجال الجيش ، أنهم لم يفكروا فى مصلحة

الوطن بمقدار تفكيرهم فى مصالحهم الشخصية ·

ليس للضابط الاسبانى أمل يسيره فى الحياة إلا التفكير فى الرقى العسكرى والحصول على رتبة عسكرية . وليس هذا شأن رجال الجيش فقط ، بل هى الحال فى آمال البيروقراطية الاسبانية جميعاً وهذه هى حال كل دولة تسودها البيروقراطية ، لا يفكر موظفو الدولة إلا فى الترقيات والعلاوات والرتب . فالجيش برجاله إن هو إلا جزء من المجتمع ، ليس إلا ظاهرة من مظاهره المختلفة

ومع ذلك فقد كان هناك ضباط آمنوا برسالة الجندية ،وأخلصوا لفن الحرب فى ذاته ، ونبغ منهم كثيرون على الأخص فى الطيران والمدفعية بحيث لا يقلون شأناً عن أضرابهم فى الجيوش الاخرى ولكن هؤلاء عددهم قليل ؛ وجودهم دليل على روح التوثب والتطلع إلى الرقى ومحاولة الخلاص من حالة الركود والتأخر اللذين كانت عليهما أسبانيا بالنسبة إلى الدول العظمى الاوربية المجاورة لها .

ولكن الاغلبية ، التى نبنى عليها الحكم العام، هى كما ذكرنا لا تخلص لفنها بمقدار إخلاصها لمصلحتها من المطالبة بالرقى فى الدرجات العسكرية والحصول على الرتب الرنانة حتى يتسنى للذين يحصلون عليها أن ينعموا

بفضل اسم هذه الرتب فى الحياة العامة .

ثم كان الزى العسكرى بمختلف ألوانه البهجة مما استهوى هذه الطبقة العسكرية أى استهواء، وذلك بما كان يكسب صاحبه من التأثير الحسن فى ارتياد المجتمعات ، وعلى الاخص على النساء . واذا صدقنا ما يقوله « فرويد » العالم النفسانى من أن الغريزة الجنسية لها أثر عظيم فى سلوكنا فى الحياة ، فان نظريته تنطبق إلى حد كبير على هؤلاء الضباط ، الذين كانوا يجدون فى إعجاب النساء بأزيائهم اللامعة ماحببهم فى الالتصاق بمهنة العسكرية لهذا السبب . وعقل المرأة فارغ تستهويها المظاهر الخلابة ، أكثر مما تؤثر فيها الحقائق الكامنة ، ولذلك كان الضباط خصوصاً ضباط السوارى لان زيهم كان أكثر بهجة وطرافة ، يحوزون اعجاب النساء وانعطافهم فى كل مكان يحلون فيه .

وحين يخرج الضابط من المدرسة الحربية إلى ميدان الحياة العامة ويرى نفسه محوطا بهذا العطف المتعدد الجوانب ، ويلمس امتيازه على اترابه من الموظفين المدنيين ، لايلبث أن يدخله الغرور ، فيضع نفسه فى غير موضعها الطبيعى .

وهو فى أول الامر لايفكر فى قيمة المرتب الذى يتناوله . ولكنه بعد

أن يتعود ارتياد المجتمعات الراقية ، حيث يضطـر ان يبـدو فى هيئة معينة تناسب مقام الاستقراطيةالذى ينزل فيه ،ومايتبعهذه المجتمعات عادة من الاسراف فى الشراب ، والجلوس إلى موائد الميسر ، يجد فى آخر الامر ان تـكاليف المعيشة اصبحت غالية ثقيلة لا يحتملها المرتب الذى يتناوله . وعندئذ ينصرف تفـكيره إلى سبيل الوصول إلى المال. وإلى جانب ذلك فانه اذا نقل الى جهات بعيدة عن المدن التى يجد فيها حظ الليالى وسمر الاصدقاء ، تبرم بهذا النقل وسعى سعيه إلى اى مكان ولو شغل فيه مركزا ثانويا ، أو عملا كتابيا لايمت إلى العسكرية بصلة كل ذلك من أجل تأمين المعيشة السهلة المغرية التى كان يعيشها .

وهـكذا يبدأ الضابط وكله أمل أن يخـدم بلاده ويخدم الفن العسكرى ، وينتهى به المطاف الى التـكاسل والتقاعد وفقدان هـذه الروح العسكرية .

إن الذين يظنون أن العلم ينتهى عند الحصول على الأجازة المدرسية يخطئون فى ذلك الخطأ كله . فالانسان طالب للمعرفة مادام على قيـد الحياة ، ولا بد لمن يريد أن يكون رجلا صالحا بمعنى الـكلمة أن يستمر على الدوام فى الاطلاع على الآراء التى تستجد فى الفن الذى تخصص

فيه ، خصوصاً فى هـذا الزمن الذى تخطو فيه المدنية خطوات واسعة فى طريق الـكشف والتقدم

ولم يكن لدى الضباط الأسبانيين فسحة من الوقت لاستزادة معلوماتهم ، والاطلاع على المستحدثات الجديدة فى الحرب وفنـون القتال ، لأن مشاغلهم الشخصية كانت تحجبهم عن كل شىء آخر

ثم انظر الى الضابط حين يتزوج وينجب أطفالا ، عندئذ لا يطيق حياة الثكنات بعيدا عن زوجته التى تلقى فى أذنيه صباح مساء مشقة المعيشة العسكرية ، وفضل الحياة المدنية السهلة الآمنة المطمئنة . وهى معذورة فى ذلك لانها ترى زوجات الموظفين والتجار ورجال الصناعة وغيرهم يكسبون الاموال الوفيرة وينعمون بقرب أزواجهم

ولا تزال هذه الأقوال تؤثر فيه أثرها حتى ينتهى الى الاعتقاد بأنه ضحية الظلم ،منبوذ المجتمع ، ويتوهم أن الطبيب والمهندس والمحامى والتاجر والصانع كل أولئك أعداؤه ، بل هم المسئولون عن معيشته المنحطة التى يعيشها بالاضافة اليهم

ولـكن ذاكرته الضعيفة تنسيه أيام الشباب حين كان يغزو قلوب النساء بفتوته وزيه ومركزه . قتل الانسان ما اكفره . . .

والخلاصة أن العداء أصبح مستحكما بين رجال الجيش والموظفين المدنيين . يعتقد رجال الجيش انهم مغبونون ، ومستواهم أقل من المستوى الاجتماعى لغيرهم من الموظفين فى الدوله ؛ فأخذوا يطمعون فى إعادة الهيبة الى طبقتهم ، والنفوذ إلى رجالهم .

وليس أسهل من اللعب بالسلاح لمن يمتلك فى يده السلاح .

وهذا هو السر فى أنه حين دعا داعى الثورة ، قام الجيش على رأسها ، ورفع علمها ، واستمر يعضدها حتى الآن

***

كان الجيش يتخلله الفساد والضعف وتسود رجاله روح المؤامرات والدسائس ولا يميل إلا إلى الحكومة التى تجيب مطالبه وهى الطبقة الاستقراطية التى منها خرج الضباط .

ولم تخف هذه الحقائق كلها على الحكومة الجمهورية ، ولذلك أرادت التخلص من الرجال الذين تعلم حنقهم على مبادئها . وكانت الحكومة مسرفة فى العطف عليهم فعرضت عليهم احالة من يشاء منهم الى الاستيداع على ان يتناول وهو فى المعاش المرتب الذى كان يتناوله وهو فى الخدمة وكان العرض جميلا فانتهز هذه الفرصة ثمانية الاف ضابط وطلبوا الاحالة إلى الاستيداع ، حيث أخذوا يعيشون حياة كلها دعة وترف

وشرعوا يدبرون المؤامرات ضد الحكومة ، وكثرت مطاعنهم العلنية على قارعة المقاهي العامة . واحتملت الحكومة من بقي منهم على مضض ولكنها لم تطق في آخر الامر صبراً ، فعزمت على اتخاذ بعض الاجراءات الحاسمة بشأن الضباط الخارجين على مبادىء الحكومة المتآمرين عليها وذلك قبل نشوب الثورة بزمن قليل فأرسلت إلى جزر كناريا الجنرال فرانكو ، والى جزء البليار الجنرال جوردد . وهناك عمل الجنرالات المغضوب عليهم المنفيون على تدبير وسائل الثورة في هدوء وسكينة بعيدا عن مدريد مركز الحكم . وظنت الحكومة بهذا الاجراء انها ادخلت الخوف إلى قلوب الضباط الذين لايدينون لها بالولاء ، ولكنها على العكس من ذلك أثارت فيهم روح الحقد والضغينة ، ايقنوا ان عمل الحكومة هو نذير الحرب عليهم ، فأخذوا في التحضير الى الثورة .

لقد حلف رجال الجيش يمين الاخلاص والولاء للحكومة والدستور الاسباني ولم تمنعهم هذه الايمان من ان يحنثوا بها فيعملوا على قلب الحكومة التي حلفوا لها بالطاعة .

وفي هذا أكبر دليل على أن الشرف كلمة تسطر في الكتب ولا يعمل بها أحد ، أما النفاق فهو الدين الذي يدين به أكثر الناس

رجال الدين

للدين سلطان كبير على النفوس .

وهو ضرورة اجتماعية ، لا تجد جماعة لادين لها ، سواء فى ذلك الجماعات البدائية أو الجماعات المتحضرة .

واذا كان الناس فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين خصوصاً فى أوربا قد خلعوا عن أنفسهم رداء الاديان وعادوا إلى الزندقة ، فلا نظن إلا أن هذه الموجة المادية موجة طارئة سيعود العالم بعدها الى الاحساس الدينى إن لم يكن اليوم ففى الغد القريب . وفى كل عصر عاش الملحدون الى جانب المؤمنين . ولعل فى سياسة رجال الدين ، أو بعض رجال الدين من الخروج على المبادىء القويمة ، والتبذل الممقوت ، ما جعل كثيراً من الناس ينظرون الى الاديان بعين الريبة ، والاديان فى ذاتها براء مما يدنسه كثير من الرجال الذين يتجرون باسمه .

* * *

عاشت أديان ثلاثة فى وئام تام جنباً الى جنب فى الاندلس حتى نهاية القرن الخامس عشر ، هـذه الاديان هى الإسلام والمسيحية واليهودية . ولكن الاسبانيين بعد أن طردوا العرب من أسبانيا وطردوا اليهود كذلك ، قضوا على هاتين الديانتين قضاء تاماً ، بالرغم من المواثيق والعهود التى اعطيت للمسلمين واليهود لتأمينهم على حرية العقائد الدينية . وحنث الاسبان فى عهودهم واضطهد المسلمون واليهود اضطهادا شنيعا ، آثر معه كثير منهم الهجرة على البقاء مع تغيير الدين والعقيدة

وأقيمت محاكم التفيش لحساب المذهب الكاثوليكى . وارتكبت الفظائع التى تستبشعها الانسانية . فلم يبق على أرض أسبانيا شخص يدين بخلاف المذهب الكاثوليكى . واصبحت الدولة الاسبانية الحصن الحصين للكاثوليكية : وأصبح لرجاله سلطان عظيم ونفوذ كبير حتى عام ١٩٣١

* * *

أما المسلمون فقد انقرضوا ودالت دولة الاسلام . ولم يبق منه الا بعض عادات لا يزال الناس يتطبعون بها تنبىء بما كان للاسلام

من شأن .

أما اليهود فحيويتهم أكثر ، وتعلقهم بدينهم أشد ، ومابالك بأمة لا وطن لها مشتتة على وجه الأرض منذ ألفى عام ومع ذلك لا يزال دينها قائما حتى الآن .

قابلت فى قرطبة فى الفندق الذى نزلنافيه شابا يتكلم اللغة الفرنسية يشتغل « قومسيونجى » وكان ثرثاراً ، طلب منى أن اصحبه لزيارة كنيسة اليهود التى أقاموها فى ٣٠ مارس سنة ١٩٣٥ إحياءلذكرى موسى بن ميمون الفيلسوف الاسبانى اليهودى وذلك لمناسبة مرور ثمانمائة عام على وفاته : ثم قال لى إن اسمه « ابراهام » وهذا الاسم يهودى ، وهو يعتقد ولو أنه مسيحى إلا أنه من أصل يهودى ولذلك فهو يحن الى اليهود . والواقع أن الاسبان حين طردوا العرب واليهود ،وأكرهوا من يريد أن يستقيم فى البلاد على اعتناق النصرانية ، اعتنقها كثيرون مكرهين ، ولكنهم ظلوا على دياناتهم سراً ، وأخذ الخلف يتناقل عن السلف حديث الدين القديم ، وهذه الأسماء اليهودية عنوان على الاصل اليهودى .

أخبرنى « جورج شقير » وهو سورى صاحب بنسيون اسمه بنسيون باريس فى شارع الطريق الكبير فى مدريد ، أخبرنى أنه عقد

مرة صلة مع فتاة أسبانية وتفاهما على الزواج ، ثم جدت ظروف أحب معها أن يقطع صلته بهذه الفتاة ، فما كان منه الا انه أخبرها فى أحد الايام أنه يهودى ، فاذابها تبتعدعنه كلية ولم تحاول بعد ذلك مقابلته . وهذا يدلنا على الحقد المتأصل بين المسيحيين واليهود .

ولما تم الانقلاب الجمهورى الاخير ، وأعلن انفصال الدين عن الدولة وضعف سلطان الكنيسة الكاثوليكية على الحكومة وأعلنت الحرية ومنها الحرية الدينية ، تدفق اليهود من جديد على البلاد الاسبانية ، واستقروا أكثر الامر فى برشلونة . وهذا أحد الاسباب التى حقد من أجلها رجال الكنيسة على الحكومة الجمهورية ، وشايعهم فى ذلك جمهور المتدينين .

كانت الكنيسة على ثروة عظيمة ، فنصف أراضى اسبانيا تقريبا كانت ملكا لهم . أضف الى ذلك أنها وجهت نظرها الى الاعمال المالية فكان لها مصانع ، ومحلات تجارية ، وفنادق ، وصحف ... بحيث اذا ضممت كل ذلك بعضه إلى بعض أصبحت الكنيسة من كبار الرأسماليين

وإلى جانب ذلك كان القسس وكل من يشغل وظيفة فى الكنيسة يتناول مرتبه من الدولة ، فهى التى كانت تؤمن معاشهم ، فى نظير ما يقوم به رجال الدين من مباشرة الشئون الروحية كما كان التعليم

موكولا اليهم .

كتب مراسل جريدة التيمس فى لندن فى اكتوبر ١٩٣٦ ما يأتى « كانت الكنيسة جزءاً من الحكومة التى كان الشعب ينظر اليها نظره إلى الظالم المستبد . . . ثم أن الكنيسه كانت تأخذ نصيبا كبيراً من مالية الدولة . وكانت الكنيسة ترزح تحت أعباء رجال الدين وانك لترى كل يوم فى الاحتفال بدفن أقل الناس خمسة عشر أو عشرين قسيساً يسارعون بالمطالبة بأجرهم »

فالكنيسة بما كانت تتناول من مرتبات رسمية من ميزانية الدولة المربوطة ، وبما كانت تقوم به من اعمال صناعية وتجارية ، اصبحت عجلة مهمة من عجلات النظام الحكومى .

وتم بذلك الجفاء بين الشعب وبين رجال الدين .

كما وقف الشعب موقف العداء من الملاك واصحاب رءوس الأموال .

***

ولم يكن سلوك رجال الدين الاجتماعى باعثاً على الاحترام أو الرضا . ففى الأغلب لم يخضع رجال الكنيسة ، ونعنى بهم من يحملون الزى الكهنوتى للقضاء، كما ذكرنا سابقا من اعفاء العسكريين

من القضاء المدنى . وهؤلاء وأولئك كانوا يرتكبون من الجرائم الاخـلاقية ما تندى له جبين الفضيلة دون خشية من زاجر أو رادع

كتب جوزى ماريا استاذ التاريخ بجامعة مدريد فى مجلة دينيه فرنسية فى نوفمبر ١٩٣٦ قال ·

«كان الملك شخصيا والحـكومة كلاهما يستقبل المطـارنة رسميا ، وذلك فى عهد الملـكية الدستورى دليلا عـلى الروابط القديمة التى كانت تربط التاج بالـكنيسة . وقد ادى هذا الحق إلى شـيوع الدسـائس واندمج المطارنة فى تيار السياسـة ، فهذا المطران صنيعة زيد من رجال السياسة ، وهذا المطران ظل لعمرو من الوزراء : وهكذا أصبح من العسير اختيار رجال الدين بحيث يؤدون رسالتهم الروحية الواجبة ، لأنهم مع استثناء القليل منهم كانوا يلقون بأنفسهم فى أمور الدنيا ويشغلون أنفسهم بها ويلتصقون بكبار رجال الدولة ، ويغشون عالم النبلاء والطبقة الراقية بحيث شغلهم هذا الانصراف الى طبقة الاغنياء من الاحتكاك بالشعب . هذا هو السر فى الفجوة العميقة التى فصلت الـكنيسة عن الشعب لان الـكنيسة أهملت واجباتها نحوه »

وكتب مطران جبل طارق التابع للكنيسة الانجليكانية فى ٢٦ فبراير ١٩٣٧ يقول (لقد فشلت الـكنيسة الـكاثوليكيه الاسبانية مع الاسف الشديد فى تأديةرسالتها من جهة التمثيل الصحيح للمسيحية فى أعين الشعب)

* * *

لم يغتفر رجال الدين للحكومة الجمهورية ، التى قامت نحوهم باجراء حاسم قضى على سلطانهم العريض فقد كان برنامج الجمهورية يشتمل على ثلاث خطوات أصابتهم فى مقتل وهى :—

١ — فصل الدين عن الدولة

٢ — إعلان حرية العقائد

٣ — جعل التعليم مدنياً لا دينياً

حين كان التعليم موكولا الى الكنيسة بلغت نسبة الاميةفى اسبانيا ستين أو سبعين فى المائة . فلما خرج التعليم من ايديهم دبرت الحكومة حملة عظيمة لمحو الامية ونشر التعليم ، وافلحت الحكومة أو على الاصح نجحت الجمهورية ، فيما فشلت فيه الـكنيسة ورجالها

فأثار هذا النجاح روح الحسد والحقد من جانب رجال الدين

هذا ولم يكن هناك وداد أو انعطاف بين الكنيسة وبين الجمهورية وزادت كراهية رجال الدين للجمهورية بعد انتصار الجبهة الشعبية

ومنذ اليوم الذى اعتلى الجمهوريون فيه كراسى الحكم شرع الكهنوت يكافحون الحكومة سرا وعلانية الى أن أعلن فرانكو الثورة

ولم يكن الجمهوريون يحملون بين جنوبهم الاخلاص لرجال الدين فالكراهية متبادلة ولكن بالرغم من كل ذلك فلم يصل الحد بالحكومة الجمهورية الى اضطهاد الكنيسة والغلو فى محاربتها ، بل على العكس من ذلك كانت الديانة الكاثوليكية محترمة كل الاحترام وشعائر الدين تقام دون أن يتعرض لاصحابها انسان ، واكثر من ذلك فان الحكومة نفسها كانت تحمل رغبة صادقة فى رفع راية السلام بينها وبين الكنيسة ؛ فالموالد كانت تجرى بين الاضواء اللامعة والاعلام المرفوعة كما كان الامر فى سالف الايام . كذلك بعثت الحكومة كبار رجالها فى الاحتفال بأضاءة كنيسة برجوس .

واذا كان حقا أن الجمهوريين فى بعض الاماكن الاسبانية اعتدوا

على القسس وعلى الكنائس ، فهذه حوادث فردية إن دلت على شيء فانها تدل على كراهية الشعب للطريقة التى كان رجال الدين يسيرون عليها ،وقد تحولت هذه الكراهية من الاشخاص الذين أساءوا الى الدين باسمه الى التعاليم الدينية ذاتها

فلما اعلنت الثورة كان من الطبيعى أن ينضم رجال الدين اليها ويؤازروها بكل ما أوتوا من قوة ، حتى اصبح الدور الذى لعبوه فى الثورة يعتبر من أهم الادوار .

***

من الساعة الاولى التى دقت فيها نواقيس الثورة وضع رجال الدين أيديهم فى أيدى الثوار وخرجت جيوش فرانكو وقد باركها المطارنة بل لبس القسس الملابس الدينية ونزلوا الى ساحة القتال ليسددوا النيران ضد الجمهوريين ؛ هؤلاء القسس المفروض فيهم أن يكونوا دعاة سلام بدل أن يكونوا رسل الخصام : ونسوا فى غمرة حقدهم وحفيظتهم تعاليم السيد المسيح التى تقول(من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر)

وأصبحت الكنائس والاديرة معاقل لجيوش فرانكو، يحتمون وراء أبنيتها المقدسة من الاعـــداء ، فانقلبت أمكنة العبادة إلى ميادين

للحرب والقتال ؛ وحلت أصوات المدافع ورصاص البنادق محل ترتيل الكنائس فى طلب الرحمة والغفران .

كتب المستر ج . ل . ستير مراسل صحيفة النيويورك تيمس فى ١٩ مايو سنه ١٩٣٧ يقول « احتل جند الثوار مقبرة وكنيسة ، وقد رأيت المدافع الرشاشة موضوعة فى جرس الكنيسة »

وزادت هذه الاجراءآت فى حنق الحكوميين فلم يجدوا بداً من ضرب الكنائس بالقنابل مادامت معاقل للثورة

وشاهدت منطقة الجمهوريين طائفة الاضطهادات التى يؤسف لها حقاً برز فيها غضب الشعب على رجال الدين ، فاعتدوا على أصحاب الزى الكهنوتى أينما حلوا ، ونهبوا الكنائس من ذخائرها ونفائسها .

واستغل الثوار هذه الحوادث الفردية القليلة ، واتخذوا منها دعاية واسعة باسم الدين . وعامة الشعب يتأثرون بسرعة لكل مايمس العقائد، ولا غنى للناس من اقامة مشاعر الدين . لذلك أفلحت الدعاية الدينية فى منطقة الثوار كل الفلاح .

ومن أنواع دعاياتهم نزول رجال الدين بملابسهم الكهنوتية إلى ميادين القتال ، كما شجع الفاتيكان حكومة الثوار .

ولقد وقع فى يقين الثوار أن الحرب الأهلية سريعة النهاية، وان دخول مدريد قاب قوسين أو أدنى من بدء الحرب.

ولكن حسابهم فشل، فاضطربت خططهم جميعا

وركبوا رؤوسهم فلم يعد باستطاعتهم التقهقر أو الوقوف فى منتصف الطريق.

من الناحية السياسية اضطر الثوار الى الاستناد إلى الحراب الايطالية والألمانية.

كذلك تورط رجال الدين فى تشجيعهم هذه الحرب، فلم يسعهم إلا الاستمرار، فاتخذوا لجهادهم أسماء جديدة كالحرب المقدسة، والحرب الصليبية والمسيحية الحربية

كتب الكردينال «جوما» نشرة عنوانها «الحالة فى أسبانيا» وزعت فى الرابع من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٦ أى فى الشهر الذى ضرب فيه الحصار حول مدريد، سننقل منه بعض الفقرات لما فى ذلك من فائدة فى بيان موقف رجال الدين، ونظرياتهم الجديدة بأزاء الثورة.

«هذه الحرب القاسية هى فى الحقيقة حرب مبادىء ومذاهب، هى حرب نظرية جديدة فى الحياة لما تخالفها. أما الحرب التى تقيمها الروح المسيحية الأسبانية ضد الروح المخالفة لها، فهى الحق، لان

الروح الجديدة ان هى إلا مادية الماركسيين . وقد كانت أسبانيا على حافة الهاوية ؛ فارادوا خلاصها بحد السيف . ولعل هذا السبيل هو العلاج الوحيد .

« وقد اتخذت الثورة مظهراً دينياً تتضح آثاره فى هذا الايمان المتفجر من أعماق قلوب الجنود .

« وانك لو تصورت هذه الحرب بدون العاطفة الدينية التى تحركها فستجدها حرباً ميتة لا حياة فيها . واذا كان حقاً أن حب الوطن كان محركاً قوياً للمجموع ، فما من شك فى أن الاحساس الدينى قد اجتذب عدداً غفيراً الى الثورة وبث فى الجند تفانياً فى الشجاعة .

« الحرب الحالية تبدو كأنها حرب اهلية لأنها تضرب الاسبانيين بعضهم ببعض على الارض الاسبانية . ولكنك إذا نفذت إلى ما وراء هذه النظرة السطحية ، لوجدت فيها روحاً لحرب صليبية من أجل الديانة الكاثوليكية ، التى عاشت قروناً فى أسبانيا حتى أصبحت كالعمود الفقرى لنظمها وحياتها »

***

هذا الموقف الذى وقفته الكنيسة فى أسبانيا فى اعلانها الحرب

صراحة على حكومة البلاد الشرعية ، والنزول إلى ميادين القتال، أضرت الكاثوليكية فى أسبانيا أكثر مما أفادتها ؛ مهما يكن الفائز فى الحرب فى نهاية الامر ؛ سواء أكان الجمهوريون أم الثوار . فرجال الدين سيحملون وزر الحرب التى اشتركوا فيها الى جانب فرانكو .

وسيتحدث التاريخ فى مستقبل الزمان أن فرانكو هو الرجل الذى ألقى القنابل على المدن المكشوفة وأنزل الرعب بالسكان الآمنين مما يتنافى مع المبادىء الشريفة للحرب ، وهو الذى خرب مدريد بالقنابل وهى عاصمة البلاد وفيها من الآثار ما يجمع حضارة عظيمة ازدهرت على توالى الزمان . وهو الذى سلط جند المغاربة الأجانب عن أسبانيا على أهلها ؛ وهو الذى سمح للجيوش الايطالية والالمانية أن تضرب سكان البلاد . سيذكر اسمه مقرونا بالخراب الذى حل بالمدن والاراضى والمذابح التى حلت بآلاف الرجال والنساء والاطفال .

وإذا خرجت اسبانيا من هذه المعارك الدائرة منتصرة آخر الامر فانها لن تغتفر لفرانكو مافعله ، ولن تغتفر اعمال الذين والوه وعضدوه من رجال الدين ؛ ومن ذا الذى ينسى أن رجال الدين وضعوا أيديهم فى أيدى فرانكو ، ذلك الرجل الذى تقطر يده بالدماء

وفى ذلك يقول مراسل صحيفة الهرالد الكاثوليكية بتاريخ ٢١ اغسطس سنة ١٩٣٦ « لن تربح الكنيسة شيئاً من العودة الى السلطان تحت ظل حراب فرانكو ، ذلك أن الدين الكاثوليكى فى أسبانيا لا ينقذه الا نهضة روحية حقة تطهر الدين مما علق به من مفاسد»

والخلاصة أن دعامة كبيرة من الدعائم التى استند اليها فرانكو فى ثورته هى الدعوة الدينية : وقد لجأ رجال الكنيسة الى فرانكو يعضدوه رغبة فى الدنيا لا حماية للدين . وهكذا اتجه الدين الى المذاهب المادية التى يحاربها رجال الدين .

دفاع مدريد المجيد

نشبت الثورة وأركانها الطبقة الأرستقراطية وأصحاب الأراضى ورءوس الأموال والجيش ورجال الدين ، فماذا بقى بعد ذلك من أهل البلاد ، ومن هم هؤلاء الذين قامت الثورة ضدهم .

إنه الشعب

إنهم الفلاحون والصناع ، أولئك الذين عرفوا طعم الجوع والعرى والذل والهوان ، وهؤلاء هم السواد الأعظم والدهماء والعامة الذين أبوا أن يعودوا الى معيشة الاستبداد بعد ما رأوا من الحرية والنور فقاموا قومة رجل واحد يدافعون عن حريتهم وعن حقوقهم وعزتهم وكرامتهم

وقد كانوا عزلا من كل سلاح إلا سلاح الحق والايمان ، واتخذوا أيما وقعت عليه أيديهم عدة للدفاع ، فاجتمعت جموعهم الغفيرة فى شتى المدن كمدريد وبلنسية وبلباو وغيرها وهم يحملون الطوب والعصى وأشباه هذه الاسلحة الضعيفة التى لا يملكون غيرها وأعلنوا الجهاد

ضد فرانكو

وسادت هذه الروح أغلب البلاد الاسبانية فى منطقة الجمهوريين وفى المنطقة التى دخلها الجنرال فرانكو أيضاً . ولكن الجهات التى استولى عليها الثوار بقوة السلاح ، أخضعوا صوت الشعب بالقوة مرتكبين من الفظائع ما يستنكف الأنسان ذكره ، والتى وصفنا طرفا منها فى بدء هذا الكتاب

وكلما ثبتت أقدام الجمهوريين والشعب فى الدفاع عن أنفسهم والذود عن الاراضى التى يمتلكونها ، زاد سخط الثوار وزادت فظائعهم التى يرتكبونها واضطربت أمورهم وحل الغضب في نفوسهم فقد كانوا يعتقدون أن القضاء على الحكومة الشرعية لن يستغرق إلا بضعة أيام يدخل الثوار بعدها مدريد دخول الظافرين وبذلك يسدل الستار على هذه الرواية : ولكن حسابهم كله انهار بعد دفاع الشعب المجيد ، ووقوفه فى وجه المستبدين

ولما طالت الحرب ، أطلق الثوار على انفسهم اسم الوطنيين بينما الحكومة الشرعية أطلق عليها لفظ الشيوعيين والحمر . وسارت هاتان التسميتان طوال هذه الحرب حتى الآن

***

وقد أوشك الشعب بعد بدء الثورة مباشرة ، فى النصف الاخير من شهر يولية وفى الايام الأولى من أغسطس أن يقضى قضاء مبرما على الثورة مهما كلفهم الأمر ، فلجأ الثوار الى الدول الأجنبية يستمدون منها العون على أهلهم ومواطنيهم ، وقدمت ايطاليا والمانيا كثيرا من الجند والذخائر الحربية والطيارات لمساعدة الثوار وبذلك استطاعوا أن يثبتوا فى ثورتهم وأن يستمروا فى حربهم

وأما جيش الحكومة الشرعية فبالرغم من حسن بلائه فى الدفاع فقد كانت تنقصه أشياء كثيرة أولها الجند ، فقد علمت أن الجيش كان عماد الثورة ، وبذلك تركوا الحكومة دون جيش . وهب الناس يتطوعون فى سلك الجيش الجديد للدفاع عن الوطن والوقوف أمام سيل الفاشستيه . وليس صحيحا أنهم حاربوا رغبة فى الحرب ، ذلك أن أسبانيا منذ عهد نابليون لم تمتشق الحسام فى حرب خارجية ، لا زهدا فى الحروب ، بل لأن الظروف السياسية لم توجه سهامها شطر هذه الدولة . ولقد كان فى الحرب الكبرى الأخيرة فرص حسنة لنزول الأسبانيين إلى ميدان هذه المعركة العظيمة التى اكتوى بنارها أغلب الدول ، ولكنها لم تدخل ، وظلت بذلك على الحياد . فابتعاد أسبانيا عن الحروب زمنا طويلا أفقد أهلها الروح الحربية ، كما أن الطبقة

المجندة كل عام كانت محدودة . ثم إن مايقرب من تسعين فى المـائة من الجيش العامل انضم إلى فرانكو ساعة أن أعلن الثورة وبذلك أصبحت الحـكومة بغير جيش مدرب ، ولكن حماسة المجندين فى سبيل الدفاع عن قضيتهم عوضتهم ما يفقدونه فى التجربة وقلة السلاح .

بعد ستة اشهر من بدء الحرب لم تستطع الحـكومة أن توزع على جميع جنودها بنادق لـكل فرد منهم ، وقد كانت قلة البنادق فى هذه الشهور الأولى مؤديا إلى كـثير من الخسـائر ؛ وأرسلت المـكسيك عشرين ألف بندقية فى وقت كانت الحاجة ماسة اليها ولـكنها لم تكن كافية . ومن ملاحظات أحد الصحفيين الذين زاروا جبهة القتال أن بعض البنادق عليها تاريخ سنة ١٨٩٦ . أما المـترليوزات والمـدافع فكان عددها قليلا جدا ، بينما الطائرات لا وجود لها لدى الحكومة وقد أهاب الـكاتب الروائى الفرنسى أندريه مالرو مواطنيه أن يتبرعوا لحكومة أسبانيا بما يشترى اسطولا جويا ، وأعدت الطائرات وسافرت وحاربت وكان عملها جليلا ، ولكن هذا الاسطول لم يستطع أن يقف على قدم المساواة إلى جانب الطائرات الالمانية والايطالية المجهزة أحسن التجهيز والتى كان جيش فرانكو يزخر بها .

* * *

فى مثل هذه الظروف المختلفة ، من قلة الجند ونقص تجاربهم وندرة آلات القتال وسوء حال الموجود منهـا ، فى مثل هـذه الظروف لم يصادف فرانكو مقاومة جديدة فى تقدمه السريع ، فاحتل بداجوس ثم مريدا ثم كاشيراس ومنها الى طليطلة حتى اقترب من مدريد نفسها . وفى ٦ نوفمبر ، أى بعد أربعة شهور من اعلان الثورة ، وصل الثوار الى أبواب العاصمة

فى تلك الأثناء أقام الثوار حكومة عاصمتها بورجوس بعـد أن رأوا أن الحرب طال أمدها عما كانوا يحسـبون . وألغت الحكومة الجديدة بمراسيم جميع القوانين التى أصدرها الرئيس «أزانا» لاصلاح الفلاحين والأراضى ، وأعادت الأراضى التى وزعت على الفلاحين إلى أصحابها الملاك . وصـدر منشور يلغى التعليم المدنى ويعيد التعليم الدينى إجبـارياً فى جميع المدارس . وحل العلم الملكى محل العـلم الجمهورى . وبذلك أظهر فرانكو بأعماله هـذه أنه عدو اصـلاح الشعب وارجاع حقوقه وأنه نصير الرجعيين فى البلاد

أما الشعب فقد أعلن إرادته فى ١٦ فبراير ١٩٣٦ بأنه مصمم على محاربة أعـداء التقدم والاصـلاح وأنصار فرانكو . وأعلن الشعب

ارادته بتأديب الفرق التى ثارت من الجيش فى برشلونه ومدريد وغيرها وأخيراً فان الشعب لايزال يعلن ارادته من الوقوف أمام فرانكو وجيشه وأعوانه من الاجانب حتى الآن .

وكان فرانكو فى خلال شهرى سبتمبر واكتوبر بعد إعلان الثورة يتقدم بسرعة كبيرة نحو مدريد كما ذكرنا ، ولكن أهل البلاد من الفلاحين والعامة أبوا أن يخضعوا لسلطان القوة وهم عزل من السلاح لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا ؛ فكان سكان القرى كلما سمعوا بقرب وصول جيش فرانكو أخلوا القرية وتركوها تنعى من بناها ، بعد أن يجمعوا حوائجهم القليلة يضعونها فوق العربات تجرها البغال وقد جلس على ظهرها الشيوخ والأطفال ، بينما الشبان رجالا ونساء يسيرون خلفها نحو مدريد . ولم يكن يدرى هؤلاء الفارون الهاربون الى أين المصير ، فهم يسيرون فى الأرض وحسبهم انهم ابتعدوا عن فرانكو رمز الظلم والاستبداد . كانوا ينامون فى الطريق تظلهم السماء وينعمون بالحرية

أما دفاع مدريد فهو اعلان جديد على نفور الشعب من فرانكو .

لقد اعان جيش الثوار فى مناسبات عدة انه سيدخل مدريد فى

أيام عينوها سلفا ، ومع ذلك فلا تزال مدريد تدافع حتى الآن .

* * *

ادهش دفاع مدريد العالم أجمع كما أدهش الثوار . ويعتبر هذا الدفاع المجيد من اكثر الصفحات بطولة وخلودا ، سيكتب لسكان مدريد بمداد من الفخار .

ولقى أهلها من الشدائد ما يعجز الوصف عنه وهم صابرون . واتخذوا شتى الوسائل للاستمرار فى القتال والصبر على شظف العيش بعد أن ضرب جيش الثوار عليهم الحصار . ووقف الترام عن الحركة لأن مخازنها وقعت فى أيدى فرانكو وخرج الرجال جميعا الى القتال واستقروا فى الخنادق المضروبة حول مدريد وبذلك خلت مدريد نفسها من الرجال وأصبح مصيرها فى ايدى النساء ، اللاتى كن يخرجن فى الصباح المبكر من دورهن ، ويقفن فى صفوف طويلة ينتظرن توزيع الخبز والارز والزيت عليهن كل واحدة بدورها ، بينما أزواجهن وأخواتهن وأبناؤهن يقتتلون على القرب تحت وابل من نيران الثوار .

أما الاطفال فكانوا يتركون فى عقر الدور ، وما يدرى أحد مصيرهم أيعيشون فى أحلام الطفولة أم تجتاحهم قنابل الطليان التى

تقذف من الطائرات دون رحمة أو شفقة

ولا يزال السكان يقاسـون نقص الأقوات ومواد الوقود ، حتى الماء لم يكن يجرى فى الأنابيب إلا ساعات معينة من النهار . ويقف النساء صفاً صفاً ساعات طويلة وهن حاملات أطفالهن على أذرعتهن فى انتظار توزيع القوت الضرورى . وكثيرا ما رمى الأعداء القنابل على هذه الجموع المحتشدة من النساء ؛ قنابل بلغ ثقل مافى كل واحدة منها من المفرقعات مائتين وخمسين كيلو لا تلبث أن تنفجر فلا ترى بعد ذلك الا أشلاء متناثرة ، هنا عضو من أعضاء الجسم وهناك عضو آخر ، وهذه أمعاء قد تطايرت فالتصقت بالجـدار ؛ جسوم مشوهة مقطعة متناثرة فى كل مكان . هذه الحال مثيرة للأعصاب إلى حد يصعب معه الاحتمال ، بل المعيشة وسط هذه المناظر المؤلمة من العسير أن تطاق ومع ذلك احتمل سكان مدريد كل ذلك ؛ ويكفى أن تعرف أن السكان الذين نعنيهم هم النساء حيث جميع الرجال القادرين قد خرجوا الى ميادين القتال . ولو أن عشرة آلاف امرأة ذهبن الى فرانكو فراراً مما يلقين من شدة العيش وذعر الحياة ، لألقت مدريد مقاليدها فى أيدى فرانكو ولـكن النساء كالرجال لم يرعهن موت ، ولم يخفهن تعذيب ، فاعلن ارادتهن

كما أعلن الرجال من قبل ، ارادة الحرية التى لا تخضع لسلطان فرانكو أو غيره .

وهكذا ضحى النساء فى سبيل الحرية والديمقراطية كثيراً من الارواح . وما قيمة الحياة مع الذل ؛ وما قيمة حياة الفرد الى جانب حياة الوطن وكرامة البلاد . لقد دفعت مدريد الثمن غاليا ولكنها لم تغلب على أمرها واحتفظت بكرامتها

ومن اعجب الكتابات التى سطرت على الجدران فى مدريد هذه الجملة «ستصبح مدريد مقبرة الفاشيست» وليست هذه الجملة الا مظهراً لارادة الشعب ، وجدير بهذا الشعب أن ينصر فى النهاية ما دام نساؤه قد ابرزن فى الشجاعة ما يفوق شجاعة الرجال.

التدخل الاجنبى

سيظل التدخل الاجنبى فى أسبانيا الوطنية سبة فى تاريخ أسبانيا الحديثة على مدى الدهر فالمنطقة المسماة بالوطنية أو بالفاشستية وهى منطقة فرانكو والثوار، وهى تخالف مدلولها الحقيقى: تعتمد فى قوتها وفى حربها لا على سواعد الجيش الذى قام بالثورة ولا على الروح الوطنية ؛ بل تعتمد على فن العسكريين من الالمان وعلى الفرق الايطالية.

ويعتقد الكثيرون أن السر فى قوة الثوار يرجع إلى المعونة الايطالية بينما الحقيقة غير هذا ، إذ أن مساعدة ألمانيا تعتبر أساس قوتهم .

ذلك أن الايطاليين يميلون إلى المظاهر الرنانة الخلابة ، فأعلنوا للعالم أجمع حقيقة انحيازهم إلى جانب الثوار ومساعدتهم لهم ولم ينكروا من كل ذلك شيئا بل على العكس من ذلك فهم يتباهون بالانتصارات التى يحرزها فرانكو ولا يخفون أن هذه الانتصارات راجعة إلى جندهم أما الألمان فهم أكثر حيطة وحذرا وصبغوا تدخلهم بقناع كثيف

ويكفيهم أنهم وضعوا أيديهم على المناجم التى تعدمن الثروات الكبيرة ثم إن الاجهزة المضادة للطائرات، والمدافع الثقيلة، والمنشآت الكهربائية كلها ألمانية ويشرف عليها مهندسون من ألمانيا .

والايطاليون فى محاولتهم الظهور، يستعرضون جيوشهم فى الشوارع ويسير جنودهم بملابسهم الرسمية فى الطرقات العامة وفى القرى وفى كل مكان ولم يكفهم ذلك بل احتلوا مراكز البريد ومحطات السكة الحديدية وديدباناتهم فى كل مكان يطلبون من كل غاد ورائح جواز المرور وخليق بهذا الوضع الذى وضعوا فيه أنفسهم أن يؤدى إلى كثير من المزالق التى تفسد علاقاتهم بالشعب الاسبانى . أما الالمان فانهم أكثر حكمة ، حتى إن موظفيهم غير العسكريين الذين يشغلون فى الجيش مراكز لا تتصل إلى العسكرية فانهم لايبدون فى الزى العسكرى الألمانى بل فى الزى المدنى حفظا لشعور البلدالتى ينزلون فيها وإبقاء على كرامة الدولة الحليفة وتطلعاً إلى المودة التى ينشدونها فى المستقبل

ومن السهل على المؤرخ اثبات التدخل الايطالى بجميع صوره لأن ايطاليا نفسها لم تنكر هذا التدخل ، بل أعلنته فى مناسبات عدة وتفاخرت به ، بينما من العسير أن تثبت رسميا تدخل الألمان .

واهل اسبانيا الحكومية يستنكرون أشد النكر نزول جيوش أجنبية بكامل عدتها وسلاحها فى الأرض الاسبانية وهم لذلك يدافعون دفاع المستميت بالرغم من تفوق جيش الثوار فى العدد والعدد ، لأنهم يرون فى هذه الغزوة الاجنبية امتهاناً لكرامة الوطن ، ولا يقل أهل أسبانيا الخاضعة للثوار استنكاراً لهذا التدخل شعبا وجنوداً وضباطاً فالكل يلمحون الخطر الداهم على الوحدة القومية وعلى استقلال البلاد من جراء طول الحرب ومكث الاجانب فى أرض الوطن : فلم يكن أحد يعتقد أن الحرب ستطول الى هذا الحد . ولا يفتأ فرانكو ومن ورائه مستشاروه الاجانب يبثون الدعايات الجرئية وينشرونها فى كل وقت وفى كل مكان ، وكلها تدور حول ضرورة الاعتماد على الأجانب باعتبار ان هذا الاعتماد هو الوسيلة الوحيدة للانتصار على الجيوش الفرنسية والروسية . وسنعرض لمدى تدخل الفرنسيين والروسيين فى مساعدتهم للحكومة الشرعية فى مدريد بعد قليل

أما جيش حكومة الثوار فانه لا ينظر بعين المودة والتعاطف الى وجود الحملة العسكرية الأجنبية فقد كان الضباط الاسبانيون يرغبون فى مساعدة ايطاليا والمانيا لا على الطريقة الحالية . بل باسلوب آخر كانوا

يودون لو أن الدولتين أمدتهم بالمدافع والطيارات والسيارات وجميع هذه المعدات الحربية ، ولا بأس أيضا من ارسال بعض الجنود على أن يكونوا تحت امرة الضباط الاسبانيين . ولكنهم مع الأسف يرون أن وطنهم قد غمره الضباط والجنرالات والقوادمن الايطاليين والألمان يتناولون المرتبات العالية التى لا يتناولها نفس اضرابهم من الاسبانيين

فرجال الجيش الاسبانيين يحسون بتحقير شديد وخيبة عميقة بازاء هذه الغزوة الأجنبية

والى جانب ذلك فالنشرات العسكرية تصدر حاملة توقيع الضباط الاجانب لانهم يحتلون مكان الصدارة ، فلهم المركز الاول فى اصدار الأوامر

هذه الحال بعثت كثيراً من الحقد والحسد فى صدور الضباط الاسبان حتى اصبحوا يتمنون هزيمة حلفائهم فى ميادين القتال . وقد حدث فعلا أن هزيمة الايطاليين فى موقعة وادى الحجاره اثارت شتى الاحاديث التهكمية فى صفوف الاسبانيين حلفائهم

ثم ان هؤلاء الأجانب لا يحاولون اخفاء احتقارهم للاسبانيين بل على العكس لا يتورعون من اظهار هذا الاحتقار

هرب أحد المهندسين الاسبانيين من مدريد وحصل على وظيفة ادارية فى مدينة برجوس ، ولم يطل به المقام حتى رأى أحد اصدقائه فى أنشغال كبير ، فقد احتل غرفته فى الفندق الذى فيه ضابطان المانيان دون أي استئذان ، ووجــــد حاجاته ملقاة خارج الغرفة . واصحاب الفنادق عندهم أوامر من القيادة العليا تقضى بوضع احسن الحجرات تحت تصرف الاجانب بينما الاسبانيون نصيبهم الحجرات المنزوية

وفهم الاسبانيون أنه من الحمق الاحتجاج على مثل هذه التصرفات فكانوا يمتثلون للأمر الواقــع ويضبطون عواطفهم حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه على غير طائل

وأكثر من هذا امعاناً في امتهان الوطنية الاسبانية أن العلم النازى مرفوع فوق فندق ماريا ايزابلا وهو أكبر الفنادق فى برجوس ، لأن هيئة الطيران الحربية الألمانية اتخذت من هذا الفندق مركزاً لها ؛ أما سكان الفندق الذين كانوا يعيشون فيه حتى ذلك الوقت فقد ارغموا على اخلاء اماكنهم والبحث عن امكنة أخرى للسكنى. وقد سمح الألمان لقليل منهم ان يتناولوا وجبات الطعام فى الفندق على شرط أن يبرحوا الدار مباشرة، وليس لهم الحق فى الجلوس داخل الصالون أو فى الردهات الداخلية

ومن لطائف الروايات التى يرويها صاحب كتاب أصدره أنتونيو فيلابلانا رئيس كتاب محكمة بورجوس وعاش فيها ردحاً من الزمن وهى تحت حكم الثوار أن رئيس المحكمة وهو من الشخصيات البارزة فى المدينة جلس يوماً هو وزوجته فى صالون الفندق فتقدم اليهما رجل الشرطة وطلب منهما مبارحة المكان حسب الاوامر الملقاة اليه من الالمان . فأبدت الزوجة ملاحظتها على بعض الاسبانيين ومنهم ابنة عظيم من العظماء ، يجلسون فى الصالون فلماذا التفريق فى المعاملة فأجاب الرجل بأن هؤلاء يجلسون برضا الالمان الذين يقولون إن الحروب والحب متفقان فلا فرق بينهما لغة إلا حرف الراء . وبناء على ذلك تقام حفلات الرقص كل ليلة داخل الفندق يحضرها هؤلاء الفتيات وغيرهن ممن يسمح لهن الألمان بذلك الحضور

ولم تكن معاملة الضباط الأسبانيين بأحسن حالا من معاملة الاشخاص المدنيين . وهذه القصة تبين مقدار التحقير الذى يصيب الاسبانيين العسكريين من زملائهم الاجانب . سافر ضابطان أسبانيان فى القطار الذاهب إلى جهة القتال ؛ ووجدوا المحلات كلها مشغولة بالركاب حتى إن كثيراً من المسافرين ظلوا وقوفا ؛ وذرع الضابطان القطار

من أوله الى آخره للبحث عن مكان يجلسان فيه ،وأخيراً وجداصالوناً يسع ستة اشخاص ، يجلس فيه ضابطان إيطاليان فقط ، فدق أحد الضابطين الباب ، وأخذ التحية على الطريقة الفاشستية واستأذن فى الدخول فما كان من الايطاليين إلا ان ركلا الباب فى وجهه حتى كاد يؤذيه . وأدرك صاحبانا أن وجودهما غير مرغوب فيه فانسحبا بسلام إلى مركبات الدرجة الثالثة .

أما موقف الشعب من الاجانب فهو أسوأحالا .

يتناول الجنود الايطاليون والالمانيون مرتبات تزيد اضعافاً مضاعفة على مايتناوله الجند الاسبان ، وهذه الوفرة المالية فى أيديهم تيسر لهم حسن المعيشة بالاضافة الىالاسبانيين ، إلى جانب الامتيازات الحاصلين عليها . فلهم أن يراقصوا من يشاؤن من النساء ، وحرمت بعد ذلك النساء الأسبانيات على الاسبانيين . ومع ذلك فهذه الطبقات الفقيرة تحتفظ بكرامتها أكثر مما تفعل نساء الطبقات الراقية . فقد حدث أن خرج النساء جميعاً من أحدى المراقص احتجاجا على دخول الجند الاجانب مجاناً إلى المرقص ، بينما الجند الاسبانيين يجب أن يدفعوا أجر الدخول .

وفى أماكن اللهو نجد بطاقات كبيرة كتبت بالخط العريض ، يطلب فيها إلى النساء أن يحسنوا معاملة الضباط والجند والاجانب، وأن يلاطفوهم وان يجيبوهم الى جميع طلباتهم؛ لأنهم الاخوان الذين وفدوا الى أرض الوطن لمكافحة الشيوعيين .

وعلى الاسبانيات أن يختاروا بين الشيوعية المزعومة أو الاعراض المسلوبة .

وهل علكن حق الاختيار والحكم العسكرى آخذ برقاب العباد .

بعد سقوط بلباو فى أيدى الثوار ، احتفل الجند بهذا الانتصار فى أحد المراقص العامة الذى ازدحم بكثير من النساء والفتيات والجنود الايطاليين والالمان والاسبانيين . وغنى الجند الاجانب أغنيات الفاشيست ثم طلبوا إلى الحاضرين أن يهتفوا « لتحيا ايطاليا ، لتحيا ألمانيا » وكان الواجب أو الذوق يقضى أن يهتفوا إلى جانب ذلك « لتحيا أسبانيا » ولكنهم بدل أن يهتفوا هذا الهتاف صاحوا فى صوت عال « لتحيا الحسان الاسبانيات »

* * *

متى بدأ تدخل ايطاليا وألمانيا ؟

هذا السؤال من الاهمية بمكان ، لأن هناك فرقاً بين تدخل وتدخل وفرق بين التدخل لغرض فى النفس، وتدخل لحفظ مصلحة الوطن والدفاع عن اعتداء .

فقد ثبت أن محادثات وقعت فى روما عام ١٩٣٤ بين موسولينى وبين بعض الساسة من الذين لايعضدون الانقلاب الجمهورى ، وأبدى الدوتشى فى أثناء هذه الاحاديث استعداده لتعضيد أى انقلاب مسلح يذهب بريح الجمهورية ويعيد الملكية . وتدل الدلائل على أن الثورة الأخيرة لم تكن تدابيرها مجهولة من ألمانيا وايطاليا

فقد شوهد الجنرال سانجورجو فى برلين قبل ١٧ يولية ١٩٣٦ بقليل والجنرال سانجورجو هو الذى اشعل نار ثورة فى اغسطس ١٩٣٢ ولكنها اخمدت. وهو الذى كان من المفروض ان يصبح زعيم الثورة الحالية لولا أن الطائرة التى استقلها من لشبونة ليصل إلى مواطن الثوار تحطمت وقتل على الاثر كما سبق أن ذكرنا . كما أن الجنرال فرانكو كان على صلة بكثير من الرسل الالمان : وعلى اى الحالات فالمستندات الرسمية التى تثبت التآمر بين هاتين الدولتين وبين فرانكو لا تزال قيد الخفاء ولا بد أن تظهر يوما من الايام

ومن الشواهد المؤكدة التى تثبت هذه الصلة أن إيطاليا أرسلت إلى الجنرال فرانكو فى مراكش الاسبانية ست طائرات حربية قبل اشتعال الثورة بثلاثة ايام وقد انكشفت امر هذه الطائرات لان ثلاثاً منها تحطمت على أرض مراكش الفرنسية ، وبعث الحاكم الفرنسى العسكرى الجنرال فكتور دينان الى باريس بتقرير عن الحادث الى باريس اثبت فيه نوع هذه الطائرات ، واضاف الى ذلك أن ضباطها تسلموا أمراً رسمياً فى ١٥ يولية بالرحيل

كما أن طيارات المانية وإيطالية قامت بنقل الجنود المراكشيين إلى أرض اسبانيا فى النصف الثانى فى شهر يولية بعد بده الثوره مباشره

والموقف الان يتخلص كما يأتى لمن يريد أن يصدر حكما تاريخياً على العمل الذى زجت ايطاليا والمانيا أنفسهما فيه. فما كاد فريق من الامة يخرجون على الحكومة الشرعية حتى بادرت دولتان اجنبيتان بمساعدة هذا الفريق بجميع الوسائل الممكنة . وهذه سابقة خطيرة فى عالم السياسة الدولية .وهذهى سياسة الدول الفاشستية الان ، ثم يساعدون فريقا من اهل الدولة التى يريدون التدخل فى شئونها . يسفرون بعد حجاب، ولا يهمهم شىء فى سبيل تنفيذ أغراضهم. وهذا هو

ما يحدث الآن فى المشكلة التشكسلوفاكية ، فالمانيا تعين سراً وعـلانية الحزب الالمانى فى تشكسلوفاكـيا التابع لهنلاين ، والخطة المدبرة هى ثورة هذا الحزب على الحكومه ، ثم تدخل ألمانيا لمساعدته . والظاهر أن وقوف فرنسا وانجلترا فى وجه ألمانيا ، جعلا هتلر يحذر الاقدام على هذه الفعلة .

ولو أن ايطاليا والمانيا كانتا تعلمان أن مساعدتهما المكشوفة لفريق الثوار سيثير الدول عليها جدياً ما أقدمتا عليه . ولكن الدول اخذت على غرة

***

بينما كان الثوار يتلقون الذخائر الحربية من طائرات الى مدافع ومترالييوزات الى سيارات مصفحة ، كان الحكوميون فى فقر شديد من هذه الناحية . وهذا هو السر فى سرعة تقدم الثوار وكانت خطة فرانكو الحربية تقضى بضرب المدن أولا بقنابل الطائرات حتى ينزل الرعب فى قلوب اهلها وتتهدم الجهات المحصنة . ثم يقوم الجنود المراكشيون بهجوم بعد ذلك على المدينة فلا تلبث أن تقع فى ايديهم . ولم تكن المدن تنتظر قدوم فرانكو بجيشه بل كانوا يفرون قبل مجيئه لعلمهم بنقص

وسائل الدفاع لديهم . وبلغ من سوء حال الحكومة الجمهورية أنها في أكتوبر لم يكن لديها الا طائرة واحدة من قاذفات القنابل ، وإلى جانب ذلك فانها لا تصلح للعمل .

واجتمعت الدول وقررت أن تعمل شيئاً إزاء تدخل الدول الاجنبية في السياسة الداخلية لاسبانيا ، وهو عمل غير مشروع من الناحية الدولية . وعقدت لجنة عدم التدخل جلساتها في لندن شهراً بعد آخر

ووقعت ايطاليا والمانيا والبرتغال على وثيقة عدم التدخل ، وبمقتضاها لا يجوز إرسال ذخائر إلى اسبانيا مطلقا لمساعدة فريق على فريق . ولكن هذه اللجنة كانت عديمة القيمة والنفع وقراراتها غير محترمة فالدول الفاشستية كانت توقع قرارات اللجنة باليمين ، وتعبث بما أخذت به نفسها من تعهدات بالشمال . فالعالم اجمع كان يعرف أن هتلر وموسوليني يساعدان الثوار ، بينما ظلت انجلترا وفرنسا والدول الاخرى تحتفظ بجدية الحياد حفظاً للكلمة التي قطعوها على انفسهم فرفضوا أن يمدوا يد المساعدة إلى الحكومة الجمهورية وهي التي كانت في أشد الحاجة الى الذخائر والاسلحة ، بينما القانون الدولي نفسه لا يمنع الدول من مساعدة الحكومة المشروعة لانها مشروعة

وكان غرض الدول من اصدار قرار عدم التدخل هو حصر الحرب

اء هليه الاسبانيه فى دائرة ضيقة حتى لا تتسع نارها فتلتهم الدول جميعاوتقع الحرب العامة التى يحاول الناس مفاداتها بجميع الطرق اجتناباً لمصائب الحرب .

فلما خرقت ايطاليا والمانيا حرمة الحياد وهتكتا ستر القرارات وأصرا على الاسراف فى مد الثوار بالسلاح . لم تصبر الدول على هذا . وفى ٧ اكتوبر أبلغ مندوب روسيا فى لجنة عدم التدخل فى لندن أن دولته تخشى أن يؤدى العبث المتكرر باتفاق عدم التدخل الى النظر اليه كأنه غير موجود ، وأن يكون الغرض من هذا الاتفاق أن يتخذ ستاراً لما تقوم به بعض الدول من مساعدة الثوار ، واعلنت روسيا انه اذا لم يوضع حد لهذا العبث فانها ستضطر الى التحرر من تعهداتها .

وبالفعل ارسلت روسيا منذ آخر اكتوبر كثيرا من الطيارات والسيارات المصفحة الى الجمهورية

وارتفع مستوى الحكوميين فى القوة الجوية واستطاعوا ايقاف هجمات فرانكو ، واستعاد الجنود ثقتهم بأنفسهم

كذلك أخذ المتطوعون يتدفقون الى صفوف الجمهوريين من جميع الجهات ومن جميع الدول بدافع من انفسهم وايمان بعقيدة

العطف على شعب مغلوب على أمره . وانخرط فى سلك الحرب العامل والصانع والمزارع والطالب فى الجامعة والمدرس والمثقف ، وبهذه المناسبة اذكر أن أحد المدرسين الانجليز فى مدرسة اميرية بمصر استقال من منصبه وذهب الى الميادين الاسبانية متطوعا . ولما كان جيش الحكومة ينقصه التدريب ، فقد عزم المحاربون القدماء ، وهم المحاربون الذين حضروا الحرب العظمى ، على التطوع الى جانب الجمهوريين ليتسنى لهم تدريب هؤلاء المتطوعين

ولنذكر هنا أن فى صفوف الحكومة كثيراً من المتطوعين من الايطاليين والالمانيين المعادين للفاشستية والنازية واغلب الناس يعتقدون أن الشعبين الايطالى والالمانى يهيمان حباً بالدكتوتارية ؛ ولكن الحقيقة غير ذلك ، فللدكتاتورية أنصار ولها أعداء فى نفس البلاد التى تخضع لهذا النظام

قابلت فى برلين فى سنة الألعاب الاولمبية شخصاً فى أحد المقاهى لا أعرفه ، وكان مهندساً ، فأسر الى كراهيته للنظام النازى لانه يمنع حرية الرأى ؛ واطمأن هذا الشخص الى لأنى اجنبي عن البلاد ولولا ذلك لما جرؤ ان يفضى الى برأيه فى صراحة وذلك لا نتشار الجواسيس

ونعود الى الحرب الاسبانية فنقول ان هذا الخليط من الناس

اجتمعوا برابطة الوقوف أمام الفاشيستية، وانتقل مسرح هذا الحرب إلى مدريد وساد الجميع روح قوية للكفاح ؛ لأن انتصار الثوار هو فى الحقيقة انتصار لموسولينى وهتلر والنظم الفاشيستية على العموم . وأصبحت اسبانيا مسرحا لحرب دولية بين دول ودول ونظام ونظام . والفرق بين الذين ساعدوا الثوار والذين ساعدوا الحكومة كبير . فايطاليا والمانيا ساعدتهم مساعدة رسمية وبعثت الى الأرض الاسبانية بجيوش مدربة مجهزة . أما الذين ساعدوا الحكومة فأغلبهم متطوعون ذهبوا بدافع من العقيدة ؛ ولهذا السبب فانه بالرغم من تفوق جيش الثوار فى العدد والسلاح ، فانهم لم يستطيعوا أن يتقدموا بنسبة هذا التفوق

ولما قوى ساعد الحكوميين بمن انضم اليهم من المتطوعين ، وقفوا لأول مرة فى وجه الثوار وصدوا سيل هجومهم وأغلقت مدريد أبوابها دون المعتدين . ولأول مرة منذ بدء الحرب الأهلية ولى الثوار الأدبار

ومن العسير معرفة عدد الجنود الاجنبية لدى كلا الفريقين ، ولكننا سنذكر على وجه التقريب الارقام التى وقعت تحت أيدينا فى الكتب التى نرجع اليها .

صرح فون روبنتروب سفير المانيا فى لندن أن الفرقة الأجنبية فى جيش الجمهوريين تبلغ ... ٦٥ جندى . هذا العدد مبالغ فيه لاظهار المساعدات التى يتلقاها فريق الحكومة على وجه المبالغة فيتسنى لالمانيا أن تقوم على الاقل بمثل هذه المساعدة للثوار . أما انصار الجمهوريين فيقولون إن عدد المتطوعين بلغ ٢٣٠٠٠ من الاجانب حتى أول يوليه ١٩٣٧ . وقد مات كثير منهم فى ميادين القتال ، ولكن الفضل فى انقاذ مدريد يرجع اليهم دون شك .

وقد غير حصار مدريد ثم ثبات العاصمة فى وجه الثوار وجه الحرب الى حد كبير . وبعد شهرين من بدء الحصار تبين لفرانكو أنه من العسير بل من المستحيل اقتحام المدينة مستنداً الى القوات المحدودة التى تحارب الى جانبه ، ولو أن الذخائر الحربية الموجودة تحت يده كانت أكثر من الكفاية

يضاف الى ذلك أن أغلب الاسبانيين رفضوا أن يحاربوا فى صفوف فرانكو ، واذا سيقوا الى الحرب ، فانهم يحاربون رغم أنوفهم من غير روح دافعة . ولافائدة من الاعتماد عليهم فى كسب الحرب

ثم انه من يوليه ١٩٣٦ الى ديسمبر من نفس العام فقد فرانكو كثيراً من رجاله على الأخص من المراكشيين ، فاذا لم يلجأ الى وسيلة

جديدة يسيطر بها على الموقف ويملك زمام الامر فان الدوائر ستدور عليه .

والسبيل الوحيد هو أن يعود الى أصدقائه الاقدمين يطلب معونتهم وهم ايطاليا وألمانيا . واذا كان حقا أن الطيارين والمهندسين وسائقى الدبابات هم من الايطاليين والالمان ، فان هاتين الدولتين لم تبعثا حتى ذلك الوقت بفيالق من الجند .

وحينئذ ارسلت ايطاليا وارسلت ألمانيا جنودهما الى الارض الاسبانية واذا كان من العسير الاتفاق على الرقم الذى ساعد الجمهوريين ، فكذلك من العسير الاتفاق على عدد الجيوش الاجنبية فى صفوف الثوار . ويقال إن ألمانيا ارسلت ١٠٠٠٠ جندى ألمانى ، وان ايطاليا بعثت ما يتراوح بين ٥٠٠٠٠ ، ٩٠٠٠٠ وساهمت البرتغال ايضا بنصيب قليل .

واذا كان أحد فى شك من مساعدة ايطاليا الرسمية للثوار فليقرأ ما كتبه موسولينى نفسه فى جريدة « بوبولودى ايتاليا » فى ٢٦ يونية ١٩٣٧ حيث ذكر أن النزاع الهائل الدائر فى أسبانيا ، الذى يجمع صنفين من الحضارة وجها لوجه ، لم تكن ايطاليا الفاشيستيه واقفة فيه على الحياد ، بل نزلت إلى ميدان الحرب ، وسيكون النصر حليفها »

ثمن المساعدات

ليس شك فى أن الحرب الأهلية الأسبانية خرجت من دائرتها الضيقة وأصبحت ميدانا دوليا .

وبعد أن كانت الدول تقوم بالمساعدات المختلفة فى طى الخفاء لم يعد يهمها أن تعلن ما تقدمه من معونة على الملأ

ولكل من الدول المشتركة في هذا النزاع مصلحة قريبة أو بعيدة سنحاول أن نكشف عنها الغطاء .

فاسبانيا غنية بمعادنها ، وقد وعد فرانكو ايطاليا وألمانيا أن يعطيهما احتكار مناجم الحديد فى بلباو ، وحقول الزئبق والمعدن بالقرب من جيداد ريال Almaden ، ومناجم النحاس فى ريوتنتو وغيرها

ومن البديهى أنه فى حالة فوز الثوار ، فلا بد من سداد الديون التى حصلوا عليها فى صورة الذخائر الحربية ولن يتيسر هذا السداد الا بالتنازل عن حق استثمار النواحى الاقتصادية الى الدول التى ساعدتها

وقد صرح هتلر نفسه قائلا : إن فرانكو ينبغى أن ينتصر لاننا فى حاجة الى مناجم بلباو

كذلك ايطاليا فى حاجة الى بسط نفوذها الحربى فى البحر المتوسط التى تعتقد أنه ينبغى أن يكون بحيرة ايطاليـة ، لابد لهـا من قواعد حربية ، وجزر البليار عظيمة القيمة كبيرة النفع من الناحية العسكرية لها . ويقال إن فرانكو قد تنازل لها عن هذه الجزر

أما المانيا فانهـا تطمع فى جزر كناريا على الاقل لتجعل منهـا قاعدة بحرية ، ولتكون قريبة من مراكش الاسبانية التى تفكر ألمانيا فى الاستيلاء عليها منذ ايام الامبراطور غليوم

كل هذا لا يعد شيئا مذكوراً الى جانب مركز اسبانيا الجغرافى بالنسبة لأيطاليا . فالدولة الصديقة فى غرب البحر الابيض توجه الحرب العالمية المستقبلة وجهة فى صالح ايطاليـا . ذلك أن ايطاليا بعـد فتح الحبشـة أصبحت تعتبر المنافس الخطر على الأمبراطورية البريطانيـة ، فاذا وضعت ايطاليا أصبعها فى اسبانيا ضمنت بذلك السيطرة على غرب البحر الأبيض

وفى صالح ايطاليـا وألمانيا أن تنتصر الدكتاتورية وهى النظرية

التى يعتنقانها . وما ظفر فرانكو الا انتصار لموسوليني وهتلر ، ولو أن الحرب فى ظاهرها حرب أهلية .

نعم هو انتصار لموسليني وهتلر . وتفسير الامر أن الفاشيستية تدين بنظرية الاغتصاب والقوة لا بدين الحق . وقد اتفقت كلمة الدكتاتوريين على تنفيذ هذا المبدأ فى كل مكان . وما الحرب الاهلية الاسبانية الا سلسلة من حلقة كبيرة دبر زعماء الفاشيست أمرها .

ففى ١٩٣١ انقض اليابانيون ، ولا تنس أن بهم يتم تالوث الدكتاتورية ايطاليا وألمانيا واليابان ، على منشوريا ، فدخلوها بسهولة ولم تجد احتجاجات الدول ، أو استنكار عصبة الأمم ، وتم لليابان ما أرادوا ضعوا العالم أجمع أمام الأمر الواقع

وشجع هذا العمل من اليابانيين موسوليني فانقض بدوره على الحبشة والتهمها منتهكا حرمه القوانين الدولية وظهرت عصبة الامم بمظهر السخرية

وسار هتلر على تنفيذ هذا المبدأ فخرق حرمة المعاهدات الدولية وسلح منطقة الرين المجاورة لفرنسا فى مارس ١٩٣٦ . ودخل النمسا فى هذا العام ، وها هو يستعد لاقتطاع جزء من تشكسلوفاكيا إن لم

تقف الدول فى وجهه جدياً

فلما وجد هتلر وموسولينى ضعف انجلترا وفرنسا وسكوتهما على أعمالهما أقدما على النزول فى الارض الاسبانية وقلبهما مطمئن

. وننتقل الآن الى انجلترا وفرنسا لنرى السر فى موقفهما السلبي .

أما انجلترا فسياستها التقليدية هى سياسة التأنى والتثبت دون الاندفاع والتسرع . والواقع أن نوايا ايطاليا والمانيا لم تنكشف لها تماما إلا آخر الأمر . ثم هى لا تريد أن تزج بنفسها فى حرب الغالب فيها كالمغلوب . كما أنها لم تستكمل استعدادها الحربى حتى الآن لانها لم تبدأ تستيقظ من سبات الضعف والاستكانة إلا بعد الحرب الحبشية .

ومع ذلك فخطر الايطاليين فى اسبانيا لم يكن مجهولا فقدعقدت المانشستر جارديان فى ١٥ ابريل ١٩٣٧ فصلا قالت فيه : « من الصعب علينا أن نفهم حماس بعض الانجليز لانتصار فرانكوا ، لأن اسبانيا الحربية الحليفة للفاشيست تعطل جبل طارق ، بل تهدد أيضا الطريق الى رأس الرجاء الصالح اذا اتخذت جزر كناريا قاعدة جوية ، ويزيد هذا الخطر اذا اصبحت جزر البليار معقلا للغواصات وقاعدة للطائرات

ولكن الساسة الانجليز كانوا منقسمين على انفسهم فى حيرة من

أمرهم بين الدفاع عن مصالح الامبراطورية من جراء توسع نفوذ ايطاليا والمانيا فى اسبانيا وبين مساعدة الجمهوريين الذين تعدهم انجلترا شيوعيين أو تمهيداً لشيوعية . وهكذا ترددت انجلترا بين الفاشستيه المؤكدة والشيوعية المزعومة .

أما فرنسا فمصلحتها أعظم من مصلحة انجلترا ، لان اسبانيا تقع الى جوارها مباشرة لا يفصلها الا جبال البرانس ، فاذا سيطرت ألمانيا على الحكومة الاسبانية فقد وقعت فرنسا فى فخ لا تستطيع الخلاص منه حيث المانيا تهددها من الشرق ومن الجنوب أيضا . واذا أضفت الى ذلك تحول ايطاليا الى جانب المانيا ، فانها تستطيع أن تقطع صلة فرنسا بمستعمراتها فى افريقا وطمع ايطاليا فى تونس والجزائر الفرنسيين مشهور .

أمام كل هذه الاعتبارات كان الواجب ان تتحرك فرنسا لتدفع الاذى قبل وقوعه ، ولكنها تلكأت ، وقبضت يدها عن مساعدة الحكومة الشرعية لاسباب مالية . وقد اضطرت اخيرا الى المساعدة ولكن بعد فوات الوقت وفرنسا معذورة فى عدم اقدامها على مساعدة الاسبانيين وحدها من غير ان تضمن وجود الانجليز الى جوارها ولم تتفق نظرة فرنسا ونظرة انجلترا الى الحرب الاسبانية .

ورأى الانجليز بطبيعتهم غير مستقر فهم يجرون وراء الرياح وينتهزون الفرصة . ففي بدء الحرب حينما كان فرانكو منتصراً على طول الخط كان الانجليز أو على الاصح الرأى العام الانجليزى الى جانبه ، فلما وقفت مدريد وقفتها المجيدة التاريخية تحول العطف الى جانب الحكومة .

لو أن سياسة انجلترا وفرنسا كانت معادية صراحة للفاشستية لاتخذتا خطة واحدة يتبعانها ، ولكنهما مع الاسف لا لون لهما وهذا هو السر فى ترددهما وسيرهما على سياسة غير ثابتة .

مراكش والحرب الاسبانية

اهل مراكش أدرى منا بحالة بلادهم ، ونحن لهذا قد وضعنا فى هذا الكتاب بعض مقالات كتبهامغاربة عن المغرب الاقصى دون أن نتقيد بما جاء فيها .

ولكننا نكتب هذا الكتاب فى مصر ، ومراكش تهمنا كدولةشرقية وكدولة إسلامية .

والسؤال الذى نضعه أمام الابصار هو مايأتى :ـ

ما الفائدة التى عادت على مراكش من مساعدتهم للثوار ؟

وسؤال آخر

ألم يكن الأفضل إن ينتهز المراكشيون هذه الفرصة فيستقلون ببلادهم ؟

ونحن نرجو أن يفكر إخواننا أهل المغرب فى قضيتهم الوطنية

قبل أن يفكروا فى قضية غيرهم .

والى القراء هذه المقالات كما جاءت فى جريدة البلاغ

. وسنبدأ بالمقالة الثانية التى نشرت بتاريخ ١٥ اغطس ١٩٣٨ ،لان فيها تلخيصا لما جاء فى المقالة الاولى .

حكومة الجنرال فرانكو

تجند مائة وخمسة وثلاثين الف مغربى

وتقذف بهم الى نيران الحرب

لسنا نبالغ اية مبالغة إذا قلنا ان عدد المغاربة الذين القوا فى جحيم الحرب الاسبانية يزيد عن الاربعة عشرة فى المائة من عدد سكان هذه البلاد ، وانا نسوق هنا احصاء دقيقا عن عدد السكان فى الريف وعدد المجندين منهم

يتجاوز عدد سكان منطقة الريف المليون نسمة حسب الاحصاء الاخير سنة ١٩٣٤ وهذا العدد لا يمكن بأى حال من الاحوال ان يخرج من الرجال الصالحين للحرب اكثر من ١٧٥ الف نفس ، لكن القيادة العامة لجيوش الجنرال فرانكو اصدرت بيانا فى يناير ١٩٣٧

أى بعد ابتداء الحرب بستة أشهر ، حددت فيه عدد الجنود المغاربة في الجهات الحربية المختلفة بـ (٥١،٠٠٠) جندى ، ثم زادت ضغطها على جيوش الوطنيين فاضطروا الى أخذ طابور كامل من الحرس الخليفى حرس خليفة صاحب الجلالة سلطان المغرب الذى يتألف من الف جندى وضابط كلهم مغاربة وكان هؤلاء يعدون النواة الاولى لجيش المغرب فى المستقبل .

وما زال الاسبانيون يسوقون الآلاف من المغاربة إلى الهلاك ويتبين من الاحصاء الرسمى فى يناير ١٩٣٨ ان المغاربة المجندين الذين أخذوا للحرب حتى ذلك التاريخ بلغ ١٣٥،٠٠٠ جندى

وهذه ارقام حقيقية ومأخوذة من احصاء الاسبانيين انفسهم وليست من تقرير غيرهم على انهم مع هذا يحاولون نقص العدد لكى لا يدخل الرعب فى قلوب العالم من وراء هذه الفاجعة . ولكن حتى هذا الاحصاء الذى اباحوا اذاعته مرعب حقا . فهو يعنى أن بلاد الريف اصبحت قفراً من الرجال الاقوياء العاملين وحرمت حتى من الاطفال الذين لا يتجاوزون الخامسة عشر

وانه لمن الاجرام أن تعدم امة فى سبيل مصلحة شخص كالجنرال

فرانكو ، ولكن هل ينتفع المغرب من وراء التضحية الغالية

كلا والف كلا ، فلن ينال المغرب حقا من الحقوق التى يطالب بها

وقد تحدث كثير من الناس عن هذا التجنيد ، وقالوا إن المغاربة يساعدون أسبانيا لانها وعدتهم بالاستقلال ولانها اعطتهم حقوقا واسعة وحريات كاملة ولكن البحث الدقيق والاتصال ببعض المصادر المسؤولة يحدد لنا اسباب التجنيد فى ثلاثة أمور هى

١ — الدعاية التى يقوم بها عمال فرانكو وصنائعه من العلماء باسم الدين وفيها يدعون الناس الى الحرب والجهاد فى سبيل الله . . نعم فى سبيل الله هكذا يقول المأجورون المستهترون بارواح اخوانهم فى نظير الدريهمات التى يقبضونها.

٢ — والسبب الثانى أن فرانكو جاء المغرب فحرم العامل من عمله وعطل التجارة والصناعة وضايق المزارع بالضرائب الكثيرة وبتخفيض اسعار منتجاته فأفقرهم جميعا وجعلهم يقاسون آلام الجوع والبؤس والفاقة ، ومن ثم دعاهم الى التجنيد لينالوا أجوراً تسد حاجة ذويهم وتنقذهم من الموت على قارعة الطريق ... وهذه الوسائل إن دلت على شيء فانما تدل على سوء النية والخبث والمكر ، ثم هى أن

مثلت شيئاً قائماً تمثل الظلم والاغتصاب بأجل المعانى

٣ — والسبب الثالث هو الذى يلجأ اليه الاسبانيون حينما تعييهم الحيل وطرق المكر والخداع . وهذا السبب هو إجبار المغاربة على ترك اعمالهم وتجارتهم وعائلاتهم وابنائهم والذهاب إلى حيث لايعودون بل الى حيث يلاقون حتفهم بين القنابل المحرقة .

والآن فلننظر الى ما آلت اليه حالة الريف بعد أن مرت سنتان على هذه الحرب الدروس ، بل على هذه المجزرة البشرية الشنيعة

لم يعد الى المغرب من المائة والخمسة والثلاثين الفا غير أعمى فقد بصره وا كتع فقد رجليه واضراب هذين العاجزين ممن لم يعودوا صالحين للقيام بعمل ما فى هذه الحياه

آلاف من الرجال الاقوياء أصبحوا عالة على زوجاتهم واطفالهم الصغار .. وعشرات الآلاف من النساء فقدن ازواجهن ؛ ولا يعرف مصيرهن الا الله وكثير منهن يبتن جوعا على رصيف الشارع أو على باب المستشفى

ولقد لحق الاسرة المغربية من جراء كل هذا و غيره الاعلال والانحطاط ، فلم يعد يمكن تصوير الحال ، ونزلت بالمغرب خسارة مادية

وأدبية لن تستطيع اجيال طويلة تعويضها

لقد عطل الحرث وتوقفت الاعمال ، والتجارات ، ومات الرجال الاشداء ، ومع ذلك نجد فرانكو غير عابىء بحقوق المغرب ولا بمطالبه ولا ناظر إلى ما تحتاجه البلاد من الأصلاح الاجتماعى والسياسى والاقتصادى

وقد أنشأت الحكومة الاسبانية فى المغرب ـ نعم فى نفس المغرب ـ ملاجىء لجرحى الحرب والمنكوبين الاسبانيين فقط وهى تجبى لهذه الملاجىء الاموال من المغاربة رغما عن انوفهم . بينما يوجد من المغرب الآف من الجرحى والمنكوبين فى الحرب يستجدون الايدى ويطلبون الصدقات ليقتاتوا .

هذه لمحة من اعمال الاسبانيين فى شمال الغرب الاقصى ننشرها لتتبين حقيقة الحال التى عليها المغاربة فتبطل الدعاية التى ينشرها مأجورو الجنرال فرانكو واعوانه

ان (مطالب الشعب المغربى) التى قدمها حزب الاصلاح الوطنى كانت غاية فى العدل والاعتدال ، بل ان هذه المطالب اقل ما يمكن لفرانكو أن يرضى به المغاربة الساخطين على سياسته الحاضرة

وقد قيل إن بعض الموظفين الاسبانيين يحولون دون تحقيق هذه المطالب .

والحقيقة غير ذلك فان فرانكو هو العقبة دون تنفيذها ولو اراد أن ينفذ هذه المطالب فى ساعة واحدة لأصدر أوامره بذلك ولن يعرقل تنفيذها رضاء أو سخط الموظفين أو غيرهم

ولكنه يخدع المغاربة ويمنيهم بالامانى الوطنية دون ان يفكر فى مصافاتهم ولا فى ارضائهم

« مغربى مهاجر »

موقف المغاربة

من الجنرال فرانكو

تلقينا الكلمة الآتية ردا على مقال مغربى فى القاهره نشرناه قبل ثلاث ايام .

نشر البلاغ قبل ثلاثة ايام مقالا (بامضاء مغربى فى القاهرة) تحت عنوان (موقف المغاربة من الجنرال فرانكو) ونحن يسرنا أن يكتب عن المغرب كثيرا وان توضح قضيته توضيحا كافيا فما احوج المغرب الى دعاية واسعة النطاق وما احوجه الى مغربى فى القاهره

وفي الشام ليبين حقيقته كما هي :

لقد بدأ صاحب المقال كلامه بلمحة عن نهضة الريف ثم اشار الى قيام الثورة باسبانيا ووصف وطنيي الريف بالاستسلام لوعود الجنرال فرانكو وحكومته ، والواقع أن وطنيي الريف لم يتركوا فرصة للدفاع عن قضية المغرب ، حتى اضطرت الحكومة الاسبانية للسماح بانشاء حزبين سياسيين أخذا يعملان لانهاض تلك البلاد

وكل متتبع لنهضة بلاد الريف يرى الخطوة التي خطاها بجهود هذين الحزبين في ظرف سنة واحدة فقد وجد في الريف هذان الحزبان اللذان تحسب لهما الدوائر الرسمية الف حساب وقام على رأسها رجلان من خير رجال المغرب وطنية وثقافة وعملا ، وهما دائما الحركة والعمل في سبيل انهاض البلاد من كبوتها

وقـــد تقدم الحزبـان بمطالب الشعب المغربي للسلطتين المغربية والاسبانية فاخذتا في دراستها

أما قول صاحب المقال عن استسلام جرائد حزب الاصلاح الوطني فلست ادرى ماذا يطلب الكاتب من وطنيي الريف ومن جرائدهم ، لعله يقصد بكلمة الاستسلام « التعاون ما بين الحامي والمحمي » فـاذا

جرى هذا التعاون ورأى الجانب الاخير أن الخير كل الخير فى التعاون وصف الـكاتب وكل من يشايعه فى الرأى أن هذا التعاون هو الاستسلام والانقياد .

وبعد هذه الـكلمة التى دعتنا إلى كـتابتها الرغبة فى ايضاح الحقيقة نريد أن نقول لأخواننا المغاربة أن المغرب فى حـــاجة إلى مقالات نافعة تعطى صورة عن المغرب الذى اصبح اسمه مجهولا يتهدد الديار ونذكر اخوانـــا الشرقيين بواجبهم نحـــوه فالمـــيدان متسع لـكتـــابة المقالات

واخيرا إلى العمل الجدى أيها الاخوان المغاربة والى العمل الصالح والله معنا ما دمنا خالصى النية لله والوطن

« مراكشى فى القاهره »

الوطنيون المغاربة

بين وعود الجنرال فرانكو بتحريرهم

على أى أساس قامت دعوة المغاربة للتعاون معه

اليوم كتب الينا (مراكشى فى مصر) يقول ان الذين ينتقـــدون بعض زعماء المنطقة الخليفية فى دعوتهم مواطنيهم الى التعاون مع الجنرال

فرانكو والمقاتله فى جيشه لاينظرون الى المسألة المغربية بعين المغربى المقيم فى بلاده ولا يحسون باحساسه فهذا المغربى قد أعوزته الحيلة مع المستعمرين حتى لم يجد امامه سبيلا لاسترداد شيء من حقوقه : فماذا يعمل وقد وجد أمامه طاغية كالجنرال فرانكو يعده بالمن والسلوى اذا هو انضاف له وقاتـــل الى جانبه ؟ ماذا يعمل غير ان يستسلم ويظهر شيئا من الاستسلام لعله يبلغ به قدراً من آماله وأمانيه ؟

قد يكون الجنرال فرانكو مخادعاً شأنه فى ذلك شأن كل مستعمر ؛ كما قد يكون سياسيا يجد من الحكمة وبعد النظر فى السياسة ان يصافى المغاربة ويكسب ودهم وصداقتهم

والامر فى الناحيتين يقوم على (النية) وهـذه (النية) مجهـولة طبعا من زعماء المغاربة المتهمين اليوم بالاستسلام لفرانكو استسلاما ادى الى التغرير بأن خمسين الف من مواطنيهم خـدعوا فى وعـوده وقبلوا ان يتجندوا فى جيشه ليقاتلوا خصومه

وليس يستطيع أحد يحكم على (النية) غير الله ولهذا يكون من الاسراف ومن الغلو ، أو من الظلم ان يتهم أحد المستسلمين من الزعماء لوعود الجنرال فرانكو بخيانتهم قضية بلادهم ، وهذا فيما اذا أسأنا

النية بهم ، ان يتهمهم بقصر النظر وعدم الحيطة واذا رجعنا إلى ماضيهم المجيد وتضحياتهم الوطنية السابقة

هذه كلمة وجيزة لم ارد ان ادافع بها عن الزعماء الذين وثقوا من الجنرال فرانكو ووعوده وقبلوا التعاون معه ودعوة مواطنيهم إلى هذا التعاون ، ولكنى اردت ان اضع الامور فى نصابها وارجو ان تختم بكلمتى كل مساجلة تدور فى هذا الصدد ! لأن المغرب الاقصى فى حاجة إلى من يدافع عن قضيته العامة ، وليس فيما يكتبه البعض — كما نعتقد — نقداً لسياسة الجنرال فرانكو فى المنطقة الخليفية ضرراً للقضية المغربية ، بل هو فى جانبها قوة فاذا كان الجنرال فرانكو صادق الوعد للمغاربة فليتعجل تنفيذه ليقيم الدليل على أنه صادق الرغبة فى التعاون مع المغاربة على اساس رد حقوقهم الوطنية اليهم

* * *

هذا ما ارسله الينا « مراكشى فى مصر » وقد نشرناه تقريراً للحقيقة التى أراد حضرته بيانها ، ويهمنا ان يعرف اخواننا المغاربة وغيرهم من ابناء البلاد الاسلامية والعربية الشقيقة اننا نعتبر قضايا بلادهم السياسية كقضايانا الوطنية فى مصر تماماً تجب لها التضحية ، أينما وجبت

وأينما كانت وانـنـا حين نفسح صفحات البلاغ للدفاع عن هذه القضايا لانظر الى أكثر من المصلحة الوطنية ، والبلاغ الى جانب ذلك منبر حر لاقلام الوطنيين من المهاجرين الى مصر أو المرابطين فى بلادهم ، فأن يكن بعض اصحـاب هذه الأقـلام قد نظر نظرة تطرف الى سياسة فريق من الزعماء فى المنطقة الخليفية فليس مما يسىء هؤلاء الزعماء كما نعتقـد أن تستشرى المبـادىء المشروعة المتطرفة ، لان استشراء هذه المبـادىء والافكار من اقوى العوامل التى يمكن ان يعتمد عليها المخلصون لتحقيق غايتهم الوطنية . وقد اخطأ بعض زعمـاء البـلاد الاسلامية والعربية المستعبدة للاجانب فى محاربة اصحـاب المبـادىء المتطرفة من مواطنيهم بدعوى ان المتـطرفين ينالون من أعمالهم ويسيئون اليهم ، ولكن كان من نتائج محاربتهم هؤلاء المتطرفين ان فقدوا هم الزعماء كل قوة يمكن ارهاب المستعمرين بها ونحن نرجو ان لايقع اخواننا المغاربة فى مثل هذا الخطأ ، ولاسيما الشبان منهم ، الى النقد الحر ، مهما يكن شديداً وقاسياً ، ومهما يكن فيه من الاتهام ، وليعملوا على استغلال هذا النقد فى مطالبة المستعمرين بالمزيد من الحقـوق المغتصبة ارضاء للمتطرفين أو دفاعا عن انفسهم . ونود مع هذا ان نقصر جهاد المغاربه لتخصيص

بلادهم على مناهضة الاستعمار ، أن لايتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم قبل ان يحققوا لوطنهم استقلاله الصحيح .

رغبة الجنرال فرانكو

فى تسخير جميع القوى المغربية لتحقيق مطامعه

منذ نشبت الثوره الاسبانية ونحن نوالى النشر فى جريدة البلاغ الثراء لافتين نظراخواننا المجاهدين فى المنطقة الخليفية الواقعة تحت حماية اسبانيا او الى يجب اتخاذه من الحيطة والحذر تجاه القائمين على سياسة المغرب من طرف الجنرال فرانكو ، وقد طالبناهم أكثر من مرة أن يسعوا سعيا متوصلا للحصول على معاهدة شبيهة بالمعاهدة الانجليزية المصرية أو الفرنسية السورية تمكن المغرب من إدارة شؤونه بنفسه وتعيد اليه ما سلبته معاهدة الحماية من حقوق

وقد مضت سنتان ونيفا على قيام الثورة الاسبانية وتصريح الجنرال فرانكو الذى يقول فيه إنه مستعد لعقد معاهدة مع المغرب ألاقصى فى مقابل تأييد المغاربة له فى الحرب القائمة بينه وبين الجمهوريين

ومع ذلك لازلنا نرى الحالة فى المنطقة الخليفية على ما كانت عليه

من قبل بالرغم من عشرات الالوف الذين قذف بهم الجنرال فرانكو فى جحيم الحرب الاسبانية ، واستيلائه على جميع مقدرات البلاد حتى اصبحت هذه المنطقة الشقية التى اذاقها لاستعمار الاسبانى ضروباً من العذاب من عهد الحرب الريفية الخالدة فى حصار

كل هذا من أجل قضية لا علاقة لها بالمغرب ولا رابطة تربطها بها ولكنها مطامع الدكتاتورية الجامحة التى لا تنى عن العبث بعقول الناس وقواهم بألوان من الخداع الممقوت والاغراء الزائف

دفعنا إلى أن نعيد ما كررناه من قبل مقال نشر فى جريدة البلاغ الغراء يوم ٢٧ اغسطس ٩٣٨ بقلم (مهاجر مراكشى) دافع فيه عن سياسة القواد الاسبانيين فى المغرب والموالين لهم من المغاربة ، وقبل أن نسترسل فى الحديث نؤكد للقراء انه لا رائد لنا فى عملنا الاخدمة بلادنا ومصلحتنا وتبين لنا الحقيقة المرة للعالم الاسلامى وتسجيلها للتاريخ حتى لا يقال إن المغاربة رضوا بتقديم ارواحهم ومقدراتهم للثوار الاسبانين بدل أن يضحوا فى سبيل تحرير بلادهم واستقلالهم

فقبل خمسة عشر عاما امتشق المغاربة الحسام دفاعا عن استقلالهم الذى عصفت به أيدى المستعمرين ، واليوم يقاتلون لا فى سبيل تلك

الغــاية المقدسة كأنهم لم يرثوا عن آبائهم الميامين إلا حب القتال وكان طلب الاستقلال وتضحية الارواح فى سبيله لم يكن هو المثل الاعــلى الذى حارب من اجله الامير عبد الـكريم والمغاربة من ورائه كمـــا أشــار إلى ذلك الاستاذ ريــاض الصلح فى بيان له أودعه عن الحــرب الاسبانية

اريد أن نسجل هنــا للحقيقة والتاريخ أن المغاربة لم يندفعوا إلى تأييد الجنرال فرانـكو إلا رغبة فى تخليص بلادهم من الاستعمار واعتماداً على الثوار الاسبانيين فى هذه الغاية فاذا هم خدعوا أو انطوت عليهم الحيلة ، فليسوا هم المسؤولين عن ذلك وانما تقع المسؤلية على القادة والزعماء الذين يلجون مدخل السياسة العويصة ويخرجون منها بنتائج تعود على بلادهم بالخير وتجلب لهم السعادة والهناء

وفى هذا المقال سنبين بعض العوامل التى جعلت بعض الوطنيين فى المنطقة الخليفية المغربية يستسلمون الى الثوار الاسبانيين ، ولا يقفون منهم الموقف الذى تفرضه عليهم الوطنية النزيهة التى لا تخشى التضحية والعذاب ولا تهاب التهديد والارهاب

كانت الوطنيــة المغربية قبل الثورة الاســبانية موحدة فى الخطط

والأساليب سواء فى المنطقة السلطانية التابعة لحماية فرنسا أو فى المنطقة الخليفية التابعة لحماية اسبانيا يتبادل رجالها الرأى والمشورة فيما يعود على البلاد بالخير ، وذلك لأن رجال الحكم فى فرنسا واسبانيا كانوا جميعاً من اليساريين الديمقراطيين فلم يكن هناك داع لاختلاف الوسائل فى مقاومة المستعمر ، أضف الى هذا أننا لا نعترف بهذا التقسيم الذى أحدثته معاهدة الحماية المعقودة بين فرنسا والسلطان عبد الحفيظ يوم يوم ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ .

فلما شبت الثورة الاسبانية وأصبحت مقاليد الأمور فى المنطقة الخليفية بأيدى الثوار أصبح من الضرورى تغيير الأساليب واتجاه كل من الهيئتين اتجاها توحى به ضرورة الموقف وما يتطلبه من المرونة والشدة تبعاً للظروف والاحوال .

وكان الوطنيون فى المنطقة الخليفية يعرفون باسم الكتلة الوطنية فلما هدأت العاصفة الأولى للثورة الاسبانية رأوا أن يخرجوا الميدان بصفة حزب له مبادىء معروفة ومناهج واضحة ترمى الى استقلال المغرب وتحريره من جميع القيود التى كبلته بها معاهدة الحماية ، ومنذ نشأ حزب الاصلاح الوطنى وانتخب لرياسته الاستاذ

عبد الخالق الطريس رأى مندوب الجنرال فرانكو فى المنطقــة أن سياسته ستكون خطراً على مستقبل اسبانيا فى المغرب ولا تتفق مع مطامعهـا فاخذ يعمل على مخادعة المغاربة عامة وأعضـاء هذا الحزب خاصة حتى استخلص منهم جميعاً نفراً وثق به فهال حزب الاصـلاح الوطنى موقفهم وقد كان بعضهم من متطرفى الوطنين لا يفتر عن العمل ولا عن التضحية وقد حاول الحزب ارجاع هؤلاء من حسن الظن بفرانكو ووعوده فلم يرجعوا

وفى هـذا الوقت نفسه شرعت الصحف الاستعمارية الفرنسية فى المغرب وفرنسا تتهم كتلة العمل الوطنى بالمنطقة السلطانيــة بأنها تؤيد الثوار الاسبانيين وتتعاون معهم إزاء هذه التهم الجريئة لم تر الكتلة بداً من أن تعلن انها لاتتحمل مسؤلية أعمال هؤلاء المخدوعين . وقد كتب الاستاذ عمر بن عبـد الجليـل السـكرتير العـام والمنفى الآن بالصحراء رداً على مقـال لجريدة « لاديبيش دى فاس » قال قبل كل شىء نؤكد أن حركـتنا مستقلة عن حركة تطوان استقلالا كليـا ، وليس لحزبنا ممثل بالمنطقة السلطانية ولا يمكننا بأى وجه من الوجوه ان نتحمل مسؤولية الاذاعات والنشريات العربية والاسبانية الواردة

من هناك ، اما فيما يرجع إلى الوعود الكاذبة التى وعد بها الثائرون الاسبانيون مواطنينا بالريف فهل يؤخذ علينا وقوع بعض مواطنينا بالمنطقة الاخرى فى حبالة فرانكو ومنحهم إعانتهم للفاشيست

لم يقنع فرانكو من دعاته أن يعملوا لحسابه داخل المغرب فحسب بل دفعهم إلى القيام بدعاية واسعة النطاق خارج المغرب ينشرون الدعاية ويزعمون انه قد رفه عن المغاربة فى الريف وأطلق له الحرية

على أننا نؤكد لقراء البلاغ أننا كنا فى السنة الماضية بالمغرب وشاهدنا بأعيننا ما وصلت اليه حالته فى المنطقتين السلطانية والخليفية من البؤس والشقاء وأحسسنا باحساس المغاربة المنكوبين لا باحساس هؤلاء الدعاة

كلمة ختام

لست من انصار الحرب ، ولكنى من دعاة السلم .

والحرب فيها معتدى وفيها معتدى عليه . أما الاول فظالم واما الثانى فمظلوم . وسيحاسب الله الظالمين حساباً عسيراً

واذا قلت أننى من أنصار السلام ؛ فاننى أقصد بذلك أننى أكره الظلم والبغى والعدوان ؛ ولكن إذا أعتدى أحد على فاننى أول من يمتشق الحسام ذوداً عن كرامة البلاد ؛ وأول من يدعو إلى الحرب .

وذنب هذه الحرب الاهلية ، وذنب النساء الاطفال والرجال والنفوس البرئية التى قتلت من غير إثم جنت انما يقع على عاتق الذين أثاروا هذه الحرب الشعواء بالباطل

ولعل اسبانيا لو ظلت فى رعاية الملكية ما وقعت فى هذه الكوارث التى تحل بها الآن

فقد كان الملك بمثابة الرأس من الجسد والربان من السفينة يتطلع اليه الغنى والفقير ويلجأ إلى ملاذه احزاب اليمين وأحزاب اليسار ؛ فيهدى

البلاد الى سواء السبيل

ونحمد الله أن حبانا الله فى مصر بالملك فاروق الأول ؛ الملك المحبوب من الشعب ومن العامة كما يحبه أهل الرأى والسادة، الملك الذى تتجلى ارادته الخير بوطنه فى كل لحظة نسأل الله له السلامة ، ونرجو الله أن يتم على يديه رفعة الوطن .

